المركز القومي للترجمة

دانيلى ديل جوديتشيه

إستاد ويمبلدون

ترجمة وتقديم

سيد الشيخ

Istituto Italiano di Cultura

@ketab_n
Follow Me
3.5.2016

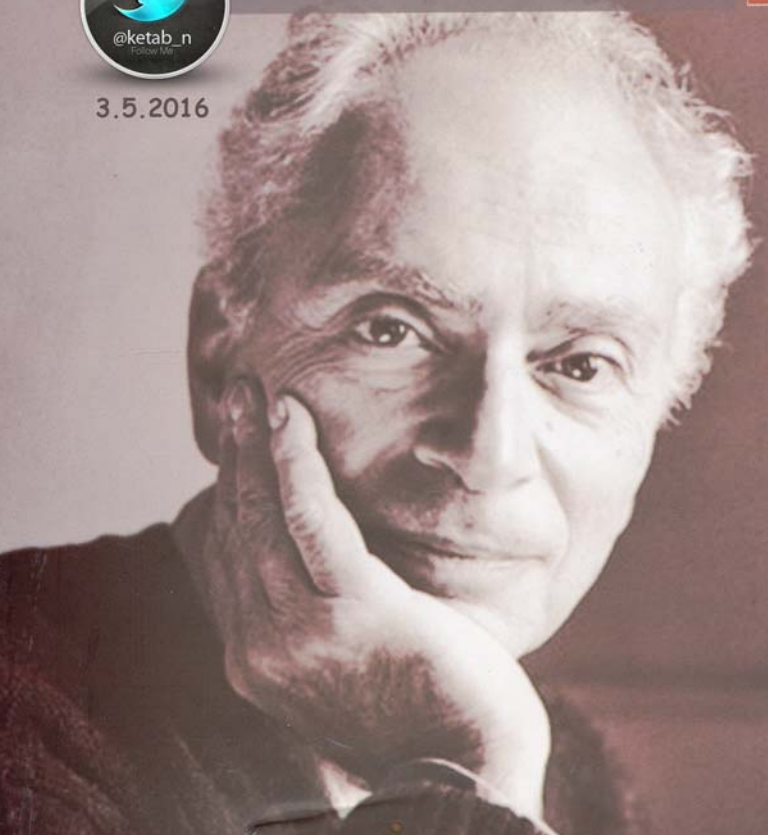

2161

سلسلة الإبداع القصصى

إستاد ويمبلدون

رواية

تـأليف: دانيلى ديل جوديتشيه
ترجمة وتقديم: سيد الشيخ

2014

Twitter: @ketab_n

إستاد ويمبلدون

رواية

Twitter: @ketab_n

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2161
- إستاد ويمبلدون
- دانيلى ديل جوديتشيه
- سيد الشيخ
- اللغة: الإيطالية
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:
Lo Stadio di Wimbledon
Daniele del Giudice
Copyright © 1983 by Daniele del Giudice
Arabic Translation © 2014, National Center for Translation
تم نشر هذا الكتاب بالتعاون مع وزارة الخارجية الإيطالية
Questo libro è stato pubblicato con il contributo del Ministero degli Affari Esteri Italiano
All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

Twitter: @ketab_n

دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

جوديتشيه، دانيلى ديل.
إستاد ويمبلدون: رواية / تأليف دانيلى ديل جوديتشيه؛ ترجمة وتقديم سيد الشيخ. -
ط١.- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٤.
عدد الصفحات: ١٩٦ صفحة. المقـــــــاس: ١٤ × ٢٠ سم.
تدمك ٧١٨٩٥٥٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - القصص الإيطالية.
أ - الشيخ، سيد (مترجم ومقدم) .
ب - العنوان .

٨٥٣

رقم الإيداع ٢٢٣٤٩ / ٢٠١٤
ISBN 978- 977 - 718- 955- 2

مطابع الأهرام التجارية - قليوب

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

الفصل الأول	7
الفصل الثانى	35
الفصل الثالث	69
الفصل الرابع	107
الفصل الخامس	125
الفصل السادس	167

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

غططتُ فى نوم قصير قارب النصف ساعة، بعدها شرعت أسترجع كل شىء مرة أخرى. وكلها أمور تقليدية للتواصل يمكننى أن أسترجعها فى يُسرٍ، وأنا أجلس داخل قطار.

وقد بدأتُ بسماع صوت يقول: نحن واقفون، ولكن ليس فى محطة قطار، وكان هناك سكون شديد، وكان يبدو أن توقُّف القطار لن يستمر طويلاً فقد كانت إشارة المرور مغلقة.

فتحت عينىّ، وربما لم أكن مستعدًا لسماع أى شىء. وإذا بالضابط الشاب، الذى كنت قد أعرته جريدتى قبل أن أخلد إلى النوم، يقول والابتسامة تعلو وجهه: «لقد تعطّل القطار». ونهض وأخذ قبعته والمعطف الواقى من المطر وحقيبته الجلدية من فوق الرفّ، ثم أطل من نافذة القطار وأشار بصورة قاطعة: «من الأفضل أن نسير على أقدامنا».

نظرتُ أنا أيضًا من النافذة، وكان من الصعب التحقق من الأمر، فنحن نقف بين الصخور والبحر فى منطقة منعزلة. أخذ الضابط يقترب من باب الكابينة، وهو يرتدى معطف المطر،

Twitter: @ketab_n

ويجـذب إلى أسفـل سُترته العسكريـة وقال: «لا يتبقّـى غير كيلو متـر واحد فقـط للوصول إلى المحطـة الرئيسية بعـد المنحنيات، ولـو انتظرنا حتى حضور مـن يقومون بدفْع القطـار المعطل من «تريستـة»، فسـوف نمكث هنا نحـو ساعة». وألقى إلـىّ بالتحية دون أن يغـادر المـكان. وكنت لا أزال فى بدايـة إدراكى للواقع ولـم أشأ أن أخالف الرغبة فـى مغادرة المكان، لذا جمعت أمتعتى وسرتُ خلف الضابط، وعندما تجاوزنا القاطرة، تحدث الضابط مـع القائمين على إصلاح القطار وذكروا أشياء فنية بشأن القاطرة المعطلة، فكانوا ينظـرون إلى الأسلاك فى الهـواء ويضحكون، كان الصبـح مشرقًـا وكأننا فـى فصل الربيـع، أو ربمـا ستكون كذلـك إقامتى هنا التى لا قيمـة لها ولا أجد لها تفسيـرًا. كنت أريد أن أضبـط خطواتى وفقًا لفلنكات القضبـان، ولكن كانت تنقُصنى بعض السنتيمتـرات، لذا كان علىّ أن أضاعـف من خطواتى من حين لآخر، وبسرعـة أيضًا؛ لأن الضابط كان يسير مسرعًا. وقد شرح لى الضابط بالتفصيل العطْـب الذى لحق بالقطار. وتطرّقنا على الفور للحديث عن خط السكـة الحديدية، والضغط ومصابيح المنحنـى وعـدد المنحدرات، أو مـن الأفضل أن أقـول؛ إنه كان يتحـدث بتمكـن وبتلقائية، بينما كنت أبذل جهـدًا فى الحد من لغتى القاصـرة. بدأنا السيْـر: كان هو بالخلف وحقيبتـه تتمايل فى يده، أما أنا فكنت أسير ويداى فى جيبى. سألنى: «هل ترى المستقبل؟»

Twitter: @ketab_n

كنت أرى المدينة لأول مرة، وكذلك الخليج والجبال والمنارة والقلعة والبيوت هنا وهناك، وبالتأكيد كنت أظن أن هذا المشهد سوف يؤثر علىّ. شرع الضابط يضحك، فقد كان يتحدث عن قضبان السكة الحديدية: هنا متوازية. واستمر حديثه دون توقف إلى أن وصلنا إلى المحطة. ثم قال لى: «ضع فى اعتبارك أننا نقوم بعمل مجموعة من الحسابات بالنسبة للمستقبل لنصل إلى عيْب فى الرؤية». لقد فكرت فى ذلك ولكن لم أعرف كيف أرد عليه، وهكذا واصلنا السير فى صمت.

وقد شعرت باحتياجى لقدح من القهوة، بل لتناول وجبة إفطار حقيقية. لقد رأينا حيوان «الخلد» يقترب ويتجه نحو القطار وكان حجمه كبيرًا، ثم رأيناه يبتعد عن المحطة بعد أن سمع صوت تحرُّك قطار الديزل.

كانت إشارات السكة الحديدية تُرى عن بُعد، ولكن عند الاقتراب منها تقل رؤيتها وتبدو من أسفل مُطفأة. وقد شرح لى الضابط أيضًا أسباب ذلك. وبعد بُرْهة سألته: هل حقًا يتم تصميم موضع عند إنشاء الكبارى لتلغيمها؟ توقف الضابط عن السير واعتراه التوتُّر لأول مرة. هدأت من روْعه وكأننى أنزع سحابة من هذا المشهد. استأنف الضابط السير قائلاً: «يتم مسبقًا تصميم

Twitter: @ketab_n

بعضـ غُرف للتفجير، حيث توجـد الدعامات الكبرى». ولم يكن مقتنعًـا؛ لذا سألنى لمـاذا أريد معرفة ذلك. فقلت إنـه يبدو لى أمرًا طبيًا معرفة حجم العمل وببساطة: فهم يفكرون فى شىء ويحققونه بكل أبعـاده، بما فى ذلك المكان الملائم لتدميـر هذا الشىء وبأقل مجهود. فقال: «إنه إجراء طيّب، ولكن لم يعودوا يصنعون الكثير من غرف التفجير هـذه. والحرب الآن لا تنتظر عمليات انسحاب هكذا متواضعة مخلّفة وراءها جسورًا مُدمّرة».

وصلنـا الآن إلـى الأرض المنبسطـة، وأعنى أننـا وصلنا إلى المدينـة. وفى نهاية المسافـة تجنّبت سؤالين غيـر مباشرين حول سبـب حضورى إلى هنا. لم أرغب فـى الحديث عن ذلك، وعلى أية حال لم أتطرق إلى هذا. ويبدو على العكس، أن الجسور كانت تستهويـه، غير أنى لم أشـأ مناقشته سر ذلك. وقـد حكيت له أننى كنـت قد شاهدت تركيب أحد هذه الجسور المصنوعة من الخرسانة المسلحـة على طريق الأوتوستراد. وكان الجسر عبارة عن قطعة أرض منبسطـة سابقة التجهيز ترتكز علـى دعامات. كان الجسر أطـول من التعشيقات، وكان يبدو وكأنـه غير موجود، وكان لا يمكـن الاعتقاد أنهم قـد أخطأوا فى القياسـات. وكانت تخرج من جوانب المسطح الأربعة أسلاك من الصلب، تم ربطها بروافع ثم بدؤوا فى جذبها. كانوا يشدونها ببطء وهم يصيحون بصوت عالٍ.

Twitter: @ketab_n

وقد تم ضغط الإسمنت فى الأول ثم تمَّ تمديده، وتقطيعه فى النهاية محدثًا صوتًا حادًا ومدويا فى الوادى، ثم تم حمْل الجسر إلى مكانه المحدد. ولـم أقل للضابط، إن لحظة تركيـب الجسر كانت لحظة فوريـة مطلقة كان يبدو فيهـا كل شىء حاضرًا. توقـف أيضًا هذه المرة ووضـع الحقيبة تحت ذراعه، فقـد كان يقيس محيط أجزاء مـن السماء بيديـه، وكان يقول دائمًـا «انظر...» وحـدِّد أنواعاً مـن الإسمنت، وطـول البحـر (مسافة بين عموديـن) والروافع والحمـولة.

وسألنى إذا كنت قد فهمت، فقلتُ «نعم»، ولكن فى الجزء الأخير مـن كلامه كنت قد سرحت، فقد كنـت أشاهده وهو يقف ساكنًا بين القضبـان، وكنت معجبًا بذلك. تجاوزنا القضبـان الخاصة بتغيير مسـار القطـارات، ووقفنا تحت سقف محطـة رئيسية. لقد تخيلت دائمًا هذه الزيارات، وربما تخيلت كل شىء بشكل مختلف، وربما يكمن ذلك فى وصولى إلى «تريستة» كما لو كنت أنا القطار. توقف الضابـط فى بهو المحطة من جديد وخلع قبعته وشرع يهذِّب شعره وقـال: «هل يوجد شىء آخر تريد أن تعرفه عن الجسور؟». فقلت له لا وأنا أبتسم، ولكن هل تدلنى على المكتبة القديمة؟

وتصافحنـا وذهب هو تجاه بوابة الخـروج واتجهت أنا نحو المقهـى.

Twitter: @ketab_n

كنت أتوقع أن تكون المكتبة صغيرة الحجم وقيِّمة فى نظر القليل من الناس. كنت أظنها أثرًا: أثرية فى موقعها وفى اتساع أرففها وفى تجليد كتبها بالجلد، وفى تعامل رجل المكتبة ذى النظارات الذى يحرس المكتبة فى أدب وثبات، وهو يرتدى رداءً وقورًا. إن صوته ذاته الذى سمعته يقول: «فيم ترغب؟» يحجب الرؤية. يجب أن أسأل عن شىء، وعندما أسأل فإن الإجابة ستكون بالنفى: «لا، فالكتب عن مدينة «تريستة» وأهلها هى أول كتب تنفد». لقد بدا لى أن استضافة الأشخاص داخل هذا المعبد تكون قصيرة جدًا، ولكن تملّكتنى الرغبة فى أن أبقى لفترة أطول، لذا سألته: «هل يوجد كتالوج؟» هز الرجل رأسه وتحرّك نصف خطوة نحو الباب.

وحيث إن الموضوعات التى كنت أبحث عنها غير موجودة، فقد أشرت بصورة مبهمة إلى الموضوع. تقدم الرجل أكثر وقال: «لا، لا يوجد عندى شىء من ذلك، ابحث فى مكتبة للكتب الحديثة». ومع لفظ «حديثة» يجب على المرء أن يتخيل العديد من الكتب المعاصرة، ومكتبات بلا تاريخ والعثور بسهولة على الكتب ثم الدخول والدفع والمغادرة.

وكلما اقترب الرجل منى، كنت أتحركُ جانبًا. وعندما أصبحنا متجاورين طلبتُ منه معلومة عن الطريق. فأعطانى إياها فى

Twitter: @ketab_n

حماس وبتفصيل دقيق للخرائط وأرقام المبانى. سرت خلف الرجل، ومع رؤيتى للصفحات القديمة الصفراء، كنت أدرك لماذا كان صادقًا تصوُّرى لهذه المكتبة بأنها معبد: كان المكان الذى نقف فيه ولم يجعلنى أتجاوزه، يتكون من مدخل، تليه صالة يتفرع من جانبيها رواقان مغطيان بالأرفف. وهناك بالداخل غرفة صغيرة أشبه بالزنزانة، كانت تقف هناك بأعلى صورة عملاقة لـ «أومبرتو سابا»: كان رجلاً عجوزًا، قصيرًا يرتدى زيًا أسود، يقف بثبات بخطوة نحو الأمام، وعصاه الموازية لساقه تتقدمه. وهناك بأسفل كانت توجد امرأة ترتدى «مريلة» زرقاء تحمل فى يدها ريشة صغيرة وتقوم بأعمال النظافة. ولم يكن ذلك ليدنِّس من قدسية المكان، ولكن ما كان يسىء إليه، هو الخدوش الموجودة بالخشب أو الأرفف الأخيرة الخاوية على عروشها. وكان هناك لون عام أشبه بلون ورق الطرود، وكذلك فى رائحته. وبينما كنت أشاهد ذلك، مد الرجل يده وصافحنى بلا حرارة.

وبالخارج ألقيت نظرة أخيرة على الكتب القليلة المعروضة بإقناع على خلفية عبارة عن غلالة حمراء مطوية، كما هى الحال فى فاترينات مُصفِّفى الشعر.

واصلتُ السيْر فى شوارع مستقيمة وفقًا لخريطة ملائمة تسمح برصد التقاطعات بصورة جيدة. حددت مكتبة حديثة، وبالفعل

Twitter: @ketab_n

دخلتُ وخرجتُ منها. وقد حصلت منها على مزيد من المعلومات، وقمت باتباعها فاتجهت نحو البحر. كان اليوم مشرقًا تشوبه بعض البرودة، وكان منظر البحر يبدو غريبًا، ربما لأننى لم أستطع أن أتصور هذه المدينة إلا من مدن الجنوب، وكان يربكنى موقع الشمس بالنسبة للماء ونوع الضوء ولونه، أو ربما لأننى تعوّدت على البحار التى تنساب بمحاذاة الساحل، وليست التى تبدأ كما هى الحال هنا.

أقف الآن داخل مكتبة أخرى: وكانت تعج بكتب كثيرة وعتيقة، بيد أنه لا يكترث بها أحد. كان بائع الكتب يبدو أيضًا ببنيانه القوى وكنزته السميكة على هيئة حرف V، وأخرى مستديرة من تحتها أشبه ببائع الأسلحة أكثر منه بائعًا للكتب. وعلى الرف كانت توجد بقايا لمجموعات كثيرة من الكتب العتيقة غير الأثرية، وكانت هى بمثابة البطولة الحقيقية لبائع كتب. وقد سألته عن كتابين، وعلى الفور صعد إلى الطابق الأعلى، والذى - رغم الألفة التى تحيط بالمكان - لم يكن باستطاعتى الولوج داخله. وبعد قليل عاد البائع ومعه كتاب مضى على طباعته نحو ثلاثين عامًا. كانت على غلاف الكتاب صورة المؤلف وكأنها ملوّنة باليد: أشقر البشرة، شعره ناعم وممشط نحو الخلف، ويرتدى نظارة ورابطة عنق، وعلى رقبته تبدو تجعيدة مستديرة. وقد اتفقت مع البائع على سعر مناسب، كان، على أية حال، أقل من أسعار الكتب اليوم.

Twitter: @ketab_n

وقد اقتربتُ من مجموعة من الكتب تحمل لافتة مكتوبًا عليها «تريستة». لم تكن هناك المجلة التى بداخلها مقال الكاتبة، ولكن كان يوجد كتاب لها به عدة مقالات وبداخله المقال الذى أبحث عنه. كان بائع الكتب قد شرع فى تنظيف أرضية المكتبة. أشرت له على الكتاب وضربت بالسبابة على اسم المؤلفة قائلاً له: «هل ما زالت على قيد الحياة؟»، فرفع رأسه وألقى نظرة على الغلاف ثم قال: «نعم أعتقد ذلك. وقد داهمتها بعض الأمراض المزمنة». وتملّكتنى الرغبة فى رؤية الكتب واحدًا تلو الآخر، فهناك مجموعات من الكتب أحتاج إليها منذ زمن، وهناك كتب أسأل عنها فى كل مدينة وفى كل مكتبة. وسأجرّب السؤال عنها هنا. امتعض الرجل قائلاً: «لا، هذه الكتب لا»، ولماذا؟ قال: نظرًا لأن فى هذه المدينة توجد لغات مختلفة وحرف كثيرة، ونظرًا لقلة المكتبات، فإنه يجب الحفاظ على كل شىء، بدءًا من الكتيب التقنى (الفنى) إلى كتب الأدب. ولكن كل شىء يجب أن يكون له أيضًا حد. خرجت من المكتبة وقد تملكنى التردد. فقد كان يجب علىّ أن أواصل السير نحو الجامعة، وفقًا لنصائح بائع الكتب القديمة فى هذا الشأن، فضلاً عن الذهاب إلى مكتبة مجلس المدينة. كانت تلك اللحظة التى شعرت فيها بالرغبة فى الضياع والتجوّل. ربما لم يكن هناك طريق، ولكن تقاطع بين الاحتمال واللا احتمال.

Twitter: @ketab_n

كمـا لو كان كل تحـرُّك أقوم به لكى أرى أيـن سيحملنى، أكتشف بعـد ذلك، أنه لم يكـن إلا البداية التى كنت أبحـث عنها. كنت أود أن أحتفظ بشىء من المقاومة مع بعض الدفعات الصغيرة الكافية، والتى لا غنى عنها.

وصلـت علـى هذا النحـو إلـى مكتبة مجلـس المدينـة، وقمت بفحص عشـرات من بطاقات التعريف بالكتـب، ومن حين لآخر كنـت أمرُّ بإبهامى فى عُجالة بين هذه البطاقات، وأنا أقف مكانى، وكانـت الكتابة داخل البطاقات تمر أمامى مُسرعة. ثم بدأت أحمل أدراج البطاقـات إلى الخـارج وأضعها على المائـدة بين فتاتين. ومـن البطاقات كان يمكن تكوين فكرة عـن تاريخ المدينة. بعض العناويـن التى ترجع للقرن الثامن عشر كانت تثير فضولى: «مثل رحلة الكتاب والحياة الموازية» «أو» عن كيفية تحويل مكان قديم كاتبه إلى قديـم». ولكن كم يمكن أن أتوه؟ وكم يمكن أن أحيد عن الطريـق؟ وانتهى بىَ الأمر بأن طلبت أكبـر عدد من الكتب يُسمح به، وهو ثلاثة كتب، ولكن لم أجد فيها تقريبًا شيئًا، فتركتها مفتوحة علـى المائدة. كانت المكتبة تخضع لأعمال الترميم: فعند السلالم، حيث كنت أذهب لأستنشق الهواء، كان هناك مشهد لهزيمة وتدمير حربى. فكانت أشبه بمستشفى عسكرى يتم إعداده بصورة مؤقتة. أخـذت كتابى الذى يحمل غلافه صورة مؤلفه الأشقر، وأوضحت

Twitter: @ketab_n

لأمين المكتبة أنه بالفعل كتابى، كان فهرست الأسماء يحمل بالطبع اسم الشخص الذى حضرت من أجله إلى هذه المدينة. ولكن حتى ذلك الحين لم أكن قد قرأت الصفحات الخاصة به. كنت، على العكس، أبحث عن إشارات خاصة بالكاتبة.

وذات مساء، حضر أحد أصدقائنا المعتادين وبصحبته حفيدته الشابة وقدمها لنا ونحن جالسون فى «مقهى غاريبالدى». نظرت إلينا الفتاة نظرة عابرة بعينيها اللامعتين، وأصغتْ إلى بعض عباراتنا، ثم ألقت فى النهاية عبارة أدهشتنا جميعا-، وكأنها كانت ترغب فى إنهاء المناقشة ثم انصرفت. أذكر أن نظرات الحاضرين ظلت تلاحقها وكان «أسفيفو» يجلس بالقرب منى فصاح عندئذ قائلاً: «يا لروعة أعين تلك الفتاة!»

عدتُ إلى صالة المكتبة، وقمت بترتيب أشيائى، نظرت إلى مجموعات الكتب والتماثيل النصفية التى كانت تملأ تجاويف الجدران. كانت المكتبة مكانًا هادئًا يمكننى أن أبقى به، حيث يصبح الكثير قليلاً، وأنجز عملى الذى يزداد يومًا بعد يوم ما بين السِّيَر الذاتية وقوائم الموضوعات، بل إن المائدة التى أجلس عليها أصبحت وكأنها ملك لى، وهذا أفضل من الجلوس على المقهى فى منتصف الصباح مع إحدى الفتيات، والتى إن عاجلاً أو آجلاً سوف أعقد معها صداقة. أما هنا فليس لدىّ شىء يشغلنى.

Twitter: @ketab_n

كنت مـا زلت مترددًا فيما سأفعله بعـد الانتهاء من العمل داخل المكتبـة. هـل أذهب إلى الجامعـة؟ قد تكون مغلقـة. ثم هل أذهب إلـى الجامعة القديمـة أم الحديثة؟ هذا الأمر يجـب أن يعرفه سائق الحافلـة، عندما أسأله عـن الجامعة. أخطأت فـى ركوب الحافلة فنزلـتُ مسرعًـا. سـرت هنا وهناك لمـرات عديدة مـا بين الحىّ وميدان البلدية، وهو ميدان ذو طابع أوربى تمامًا، يشبه فى ثلاثة من جوانبـه «سالزبورج» أما فى الجانب الرابع، حيث كان يجب أن يكون هناك مسرح، نجد البحر.

وصلت إلـى المحطة المقصـودة دون أن أقرر ذلك. انتظرتُ قليلاً. هل أذهـبُ إلى شارع «سيسليا ريتمايـر؟» استبعدت ذلك، فلسـت فـى طريقى للحـج. يمكننـى أن أذهب إلـى مصحة علاج الأمراض المزمنة. كانت قد مرت بضع عشرات من الدقائق على صياح «إسفيفو». والمسافة بين صورة فتاة «لامعة العينين» وبين مـا كنت أراه عندئـذ، كل ذلك الوقت، استمـر بمقدار ما انتظرت الحافلـة. كم كانت تبلغ من العمر؟ حاولـتُ أن أصل إلى ذلك كلما استعدت فى ذهنى مشهد المقهى. ومع وجود نقاط ثابتة، فقد كانت حساباتى كلها تقريبية. كنت أتمنى بمنتهى البساطة أن يكون عمرها مناسبًا لعمرى.

Twitter: @ketab_n

هل أذهب إلى مصحة الأمراض المزمنة؟ هل أذهب بالفعل إلى الجامعة؟ أم أذهب لتنـاول طعام الغداء؟ كان هناك على الرصيف المقابـل يسيـر اثنان من الزنـوج. وكان هناك رجـل عجوز من «تريستـة»، مع زوجته، وقد أخذ يعلّق على الزنوج. أما أنا، فقد شرعتُ أعلـق فى سرّى على مدى انتماء هذا الرجل التريستى إلى مدينة «تريستة». ومن يدرِ كيف سيعلق علىَّ بمجرد أن ينتهى من النظـر إلىَّ، وماذا سيكون رأيه الآن، وأنـا أبدو بوضوح شخصًا غريبًـا، بالفعـل الآن مـع وصول الحافلـة، استـدرتُ وغادرتُ المكان.

بدأتُ أشعرُ بالوهن شيئًا فشيئًا مع إعادة المرور بنفس الشوارع التـى سلكتها من قبل، ومع عبـورى مرة أخرى للميـدان الفسيح بجانبـه، المفكك فـى الجزء الذى لم أكـن أنظر إليـه. كان هناك أيضًا داخلى وطبيعـى لسرعة الحافلة، وذلك انتظارًا لبناء مطعم. ولقـد عثرت على أحد هذه المطاعم فى قلب الحى اليهودى، وكان كل شـىء به علـى ما يـرام، حتى الفاكهـة كانت طيبـة المذاق، وقـد قررتُ ألا أفكر فيمـا أفعله هنا. وقد اعتـرت خيالى حالة من الكسل الشديد فيما يتعلق بصـور الملاكمين على الجدران والمدير النابوليتانى. كان ينهض فى كل مرة ويذهب إلى المطبخ، ويُحضر طبقًـا ويضعه على مائدتى ويجلس لتنـاول الطعام مع الأسرة التى

Twitter: @ketab_n

تجلس بجواره. كانوا يتحدثـون بلهجة سليمة كنوع من المقاومة. طلبـت دليل التليفون، وحاولت إعمـال عقلى كتدريب ضد التبلد، وفى نهاية الأمر انحصـرت الأرقام المتاحة فى ثلاثة فقط. منزل الكاتبـة، والمستشفى البارز فـى الدليل، ومستشفـى آخر، ولكن كانت الإشارة فيه إلى قسم الأمراض المزمنة.

الرقم الأول لم يرد، والثانى لا أعرف، أما الثالث فقد كان هو الرقـم الصحيح. وقـد سألت عن الموعد الـذى يمكننى فيه الذهاب إلـى المستشفى. ولكـن على الجانـب الآخر، كان هنـا شىء من الحيـرة، حيث جاء الرد: «ربما فـى الخامسة». وقد تخيلتُ بقائى ساعتين أخريين هكذا، فقلتُ: «ألا يمكن أن أحضر الآن؟»، وجاء الـرد بصوت لرجل: «نعم يمكنك التفضُّل بالحضور وقتما تشاء». كان الصـوت يبدو متساهلاً وغير مشجع. ربما لم تكن المشكلة فى تكدس الفحوص الطبية. ذهبت مسرعًا واستقللتُ سيارة بالأجرة، وأعطيت العنوان للسائق وغادرنا وسط المدينة. فقد كان المستشفى فـوق تل صغير على حدود المدينة. ولم يكن مبنى واحدًا بل كانت عدة فيلات صغيرة عند سفح التل بها حدائق ونباتات الزينة. أصر السائـق على أن يحملنـى حتى بهـو المستشفى. وفى تلـك الأثناء كنـت أحسب للمـرة الأخيرة عُمْـر المرأة، وعلى أيـة حال كانت آخـر مرة أستطيع فيها أن أتخيلهـا. كان المبنى هادئًا، كانت هناك

Twitter: @ketab_n

عـدة درجات قليلة كان علىّ أن أصعدها. وعند الدور المرتفع بين الأرضـ والأول، وجدت بالخلف بابًا زجاجيًا. كان هناك رواق ذو لون أخضر، وكان يشع ضوءًا يشبّه بالضوء فى دول الشمال، فـى وقت ما بعد الظهيرة، نعم كان هناك شيء نمساوى ـ مجرى، ومرة أخـرى لا أدرى لماذا، كانت هناك صـور حرب. لم يكن هناك أى ممرض؛ كان يوجـد فقط فى نهاية الرواق رجل عجوز يرتدى بيجامـة ويسير ببطء بجوار حائط الرواق. استدار الرجل ببطء وبـكل جسده حتى يرانى، كما لو كان مـن الصعب عليه أن يستدير بجزء من جسده وبصورة منفصلة. دخلت أول باب يفصل بينـى وبينه فإذا به مطبخ. وكانت بداخله امرأة بدينة، أشارت إلى الدور الأعلى وبالتحديد الغرفة التى توجد فوق المطبخ.

صعدت مجموعـة أخرى من درجات السلـم، كان هناك باب آخـر من الزجاج، وكان هـذا الطابق مشابهًا تمامًـا للسابق. كان مدخل الغرفة يوجد هناك بأسفل، ورأيتنى أسير أنا بمحاذاة الحائط وتوقفـت قبل عتبة الغرفة. لـم أكن أود أن أقـدم نفسى بمفردى، فلـو كان ترتيب الغُرَف فى هذه الـدور مثل السابق لوجدت غرفة التمريضـ بسهولة. وعندما استدرتُ وجدتُ خلفى ممرضًا، وهو شاب ذو شعر طويل ويرتدى صندلا أبيض. قال إننى تحدثت معه عبر الهاتف. كدت أطير فرحًا، ولكن دفعنى داخل الغرفة. كانت

Twitter: @ketab_n

الغرفة كبيرة ومضيئة وشديدة التعقيد. كانت تخلو من الستائر. كان أول شيء أجده هو السرير على اليسار، بالقرب من باب الغرفة. وكانت المرأة نحيلة الجسد بصورة مذهلة.

قلتُ فى صوت خافت للشاب: «ألا تتعب من الكلام؟». فرد علىّ بصوت عالٍ، كما لو كانت المرأة غير موجودة بالغرفة: «هل تمزح؟ إنه من المفيد لها أن تتكلم. تكلمى قدر استطاعتك». وجاءت ممرّضة فى منتصف العمر، وشرعت هى والشاب فى ترتيب المكان حول السرير، وفى إعداد المرأة، فقاما بتهذيب شعرها وتسريحه إلى أعلى وحملا بعيدًا قدحًا كان بجوارها. وقالا لها: «هناك زيارة لك»، فردت: «آه، نعم، نعم».

قدمت نفسى أخيرًا لها وأخبرتها، من أين أتيت، وعن من أريد أن أتحدث. الاسم الذى ذكرته أثار دهشتها، وظلت ترددده وهى تصيح تقريبًا ولكن ليس فى وجهى، ولكن فى وجه الممرضيْن اللذيْن قاما بتحريك رأسها هنا وهناك ثم انصرفا.

أخذت المرأة تُفرِد بيدها الرقيقة ثنايا ملاءة السرير، ونظرت إلىّ وكأننا نعرف بعض جيدًا وقالت: «هل أستطيع أن أقدم لك شيئًا؟».

أمعنتُ التفكير، وبدا لى أن هذا السؤال تنقصه أشياء أخرى حوله، ولكن قلت سآخذ قدحًا من القهوة، فأشارت لى أن أقتربَ

Twitter: @ketab_n

منها، فهمستْ فى أذنى قائلة: «بعد قليل سيمرون بالشعير، فاذهبْ إلى غرفة التمريض واطلب منهم أن يعطوك قهوة حقيقية».

كانت هناك مع الشاب والمرأة فتاة أخرى. وقد أصبح من الصعب طلب قدح القهوة. كان الثلاثة يلتفُّون حول درج مكتب وكانوا ينظرون إلى ملف بداخله دون إخراجه من الدرج. كانوا يقرأون بصورة غيرة واضحة ويتناقشون. وعندما رأونى أغلقوا الملف والدرج. وقال الفتى: «كنا نعتقد أنها تحتضر، أما الآن فهى بخير». أشرت إلى ماكينة القهوة التى كانت توجد فوق الموقد المشتعل. تقدمت الممرّضة العجوز وقالت: «هذه القهوة لنا، ولكن سنعطى لك منها». أخرجت من العلبة فنجانًا، وأرتنى إياه وكان يبدو جديدًا وملأتـه، ووقفت بالفنجان فى يدها دون أن تعطينى إياه، وقالت: «الآن يجب أن تقول لنا هل كانت الأشعار التى كانت تلقيها السيدة حقيقية». سألتها ماذا تعنى بكلمة «حقيقية». فردت قائلة: «أعنى هل كتبتها هى ذاتها». لم يكن يبدو لى ذلك أنه فرض، ولكننى حكيت لهم ما أعرفه. نظر الثلاثة إلىَّ باهتمام وأنا أرشف القهوة، وكأن وجودى هناك معهم، وهو بمثابة تأكيد على ذلك. إنه لأمر غريب فلم تكن لدىّ الرغبة فى البقاء هناك، ولم تكن لدىّ الرغبة أيضًا فى مغادرة المكان. ومع عودتى إلى غرفة المرأة،

Twitter: @ketab_n

كنت أفكر فى إيجاد سبب للوقت الذى أضعته فى غرفة التمريض، أما المرأة فربما أضاعت هذا الوقت بطريقة شخصية مختلفة تمامًا، حيث كانت تفكر فى العبارة التى قالتها لى على الفور، وبصوت رقيق ومحدد لدى جلوسى بجوارها. «كنت أجلس على مائدة صغيرة مع صديق لى ذكى جدًا، قمة فى الذكاء، وفجأة نهض شاب وفتاة كانا يجلسان على مائدة أخرى واقتربا منا. قالت الفتاة: «لقد سمعنا حديثكما، وهو حديث يروق لنا. هل يمكن أن نجلس معكما؟». وقدّم صديقها نفسه قائلاً: «روبرتو بازلن». قال ذلك وهو ينحنى انحناءة تثير الضحك. وشرعنا نتحدث عن الأدب. عن الأدب العظيم بدءًا من الكتب القديمة إلى الكتب الحديثة».

سألتها أىّ كتب.

نظرتْ حولها فى صمت، ثم اقتربت منى بوجهها، وقالت فى صوت خافت: «يجب أن نضع فى اعتبارنا الكتب التى تتميز بالآلام. هل تفهم ماذا أقصد؟».

لم أكن متأكدًا مما تقصده ولم أرد بكلمة واحدة. صمتُّ دون أن أكترث بهذا التوقف أو بالوقت.

قالت المرأة: «الشاب والفتاة كانا يدرسان بعضهما. وأعتقد أنهما كانا يبحثان عن نقطة التقاء لتفادى الصدام. وعندما كانا

Twitter: @ketab_n

يتحدثـان، كان كل واحد منهما يوجّه كلامـه للآخر، دون النظر إلـىّ أو إلى الفتـاة بجـوارى. وكان كل تأكيد ينتهـى بنهاية غير مؤكدة، ويصبح موضع تساؤل، وكانـا يتحدثان عن أشياء كثيرة وكأنها قد حدثت بالفعل. الشىء الوحيد الذى كان يثير قلقهما هو أن تظهر مكانتك».

قلت لها: «أظهر مكانتى. كيف؟».

فكرتْ قليلاً ثم أجابت قائلة: «أى دون أن تبدو شخصية مهمة. وكأنهما يستطيعان الاستغناء عنا أو أننا لا نساوى شيئًا».

تعلقت المـرأة بشىء أشبه باللجام المصنـوع من الشاش، كان يبـدأ من عند أرجل السرير، واعتدلت فى وضعها الجديد. حاولتُ أن أتجـه ببصرى نحو أى شـىء آخر بالغرفة، ولكـن لم أر غير ستائر ذات ثنايا كانت تحجـب الرؤية عن مساحات داخلية متناهية الصغـر، وعن منازل كاملة كانت تحيط بمخـدع المرأة. لمستنى المرأة برفق. استدرت نحوها، فقالت «ألست واضحة بما يكفى؟». أجبتهـا: «لا، بل على العكس». فأشارت بإشارة أكثر تعقيدًا قائلة: «ربما لا يهمك هذا الأمر. ما الذى تريد أن تعرفه عنه؟»

«لماذا لم يكتب».

Twitter: @ketab_n

لقد اخترت الطريق الأكثر وضوحًا، وليحدث ما يحدث. اندهشت المرأة ولم تقل شيئًا. وسمعت فى ذلك الوقت تمتمة بلهاء، لا أدرى من أىّ غرفة فى الطابق. وكانت عبارة عن مقطع يتكرر بإصرار وبصورة واضحة. فى البداية كنت أسمع هذا المقطع دون وعى، وكأنه جزء من الأثاث. أما الآن فقد أصبح واضحًا ومجددًا ويصيب الهدف.

قالت المرأة: «لقد حققتْ قصائدى الشعرية نجاحًا كبيرًا فى هذه المدينة». وبعد برهة قالت: «إنى أحفظها عن ظهر قلب».

نظرت المرأة إلىّ وشردت أنا ببصرى بعيدًا. استدارت المرأة بعض الشىء، وتغيرت نبرة صوتها بصورة عنيفة قائلة: «سأفقد صبرى إن لم يحضروا لى القهوة».

خيّم الصمت على المكان. ثم شرعت تقول شيئًا بصوت خافت، وكانها تستبعد وجودى، ثم بدأ صوتها يعلو. كانت تتمتم بأبيات شعر بسيطة جدًا وقصيرة وربما تنطقها باللجهة، ولا شىء غير ذلك. لم أفلح فى تحديد كل ما كانت تقوله، وكنت أشعر، من جانب آخر، أننى سلبى ولم أكن أعرف ماذا كان يمكن أن أقوله فى النهاية.

Twitter: @ketab_n

كانت المرأة تلقى الشعر، وهى تنظر إلى سقف الحجرة، وكأنها تقرأ الشعر هناك بأعلى. وكانت بين الحين والآخر تواصل إلقاءها لأبيات الشعر، إلى أن تنتهى وقد بُح صوتها ثم تلتفت نحوى فأثنى عليها قائلاً «جميلة». فتقول: «أود أن ألقى عليكِ واحدة أخرى وهى قصيدة «الباستو».

ابتسمتُ وأشرت لها أنه سيكون من الأفضل لو شرحتها لى. ولكنها لم تفعل ذلك. استمعت إلى القصيدة الشعرية بالكامل وكانت أطول من سابقتها. ثم بدأت تشرحها فى رشاقة قائلة: «الباستو» معناه المتر. وكان أبى يحمله معه ليقيس به العرض والطول. «والباستو» فى هذه القصيدة يقصد به النظام الأخلاقى عند أبى. فقد كان أبى ينظر إلى الماء وهو يغلى، وهو يرتدى فى معصمه جهاز الكرونومتر (جهاز لقياس الزمن بدقة بالغة)، فإذا لم يغل الماء فى الوقت المحدد، كان أبى يتقدم باحتجاج لدى شركة الغاز. كان هو الوحيد الذى يفعل ذلك، ولكن لم يكن الكل يفهمه».

حضر الآن، مرة أخرى، الثلاثة الذين يعملون فى غرفة التمريض دون إحضار الشعير. أخرجت الكتاب الذى يحمل اسم المرأة على الغلاف. لمس الثلاثة الكتاب، ونظروا إليه ثم قالوا: «ها هو ذا!». أظهرت أيضًا الكتاب الآخر، كتاب المؤلف الأشقر،

Twitter: @ketab_n

والذى يتحدث فيه عن المـرأة، وأعطيته عبر المرأة للفتاة، وكان مفتوحًا على صفحة بذاتها.

وددتُ أن أعثر على الخيط مرة أخرى، وأن أقول شيئًا للمرأة التـى كانت تتابع مـرور الكتب من فوقها، وكأنهـا عصافير تحلق عاليًا. كنـت تقريبًا على وشك التحدث، ولكـن الفتاة شرعت تقرأ بصـوت عال: «فى أيـام السبت التى كنا نجتمع فيهـا، وكنا كثر، من أجل حضور الندوات فى منزل الشاعرة، كانت الغرفة الأكبر تفتح لنا أيضًا. كانت المقاعد الصغيرة تنقل أيضًا إلى الغرفة الكبيرة عندما كان «جوتّى» يقوم بقراءاته، وفى هذه الغرفة كانت توضع على الأرائك رسومات ولوحات الرسامين. وكانت حلقات السمر تُعقَـد وتنفض، ما بين الغرفتين، وفقًـا لموضوع الحديث، وكان الحضـور يجلسون فـى جماعات عندما كانت تعـزف الموسيقى. وكانـت هناك أيضًا برامج لأيام السبت تلك. كانت هى ذاتها تكتبها علـى الآلة الكاتبة وكانـوا يتركون لها هذه البرامـج على المائدة. فـى ذلك اليوم كان البرنامج يتضمـن شعراء من كل أنحاء العالم، بـدءًا مـن «هوميروس»، «سافّـو»، أرينّـا، «أركيلوكو»، «أنا كريونتـى»، ثـم كان يأتـى بعد ذلك الشاعـر الصينى «بـو ـ كو ـ إى»، ثم شعراء أمريكا الزنوج، وشعراء فرنسا أمثال «فيلون»، «بودليـر»، «رمباو»، «وكوكتيـه»، وأخيـرًا الشاعر الروسى

Twitter: @ketab_n

«إزنين». وفى لحظات التوقف كان «جوتّى» يجفف جبهته ويرفع خصلة شعره الأبيض المسدل كنبات المعلاق، والذى كان موضع دلال وإعجاب...

جلست الفتاة فوق السرير، كانت تقرأ بسرعة فائقة، ربما كانت تفكر فى الانتهاء من قراءة الكتاب. أما الممرضة الأخرى والشاب، فقد وقفا مستندَيْن على عاتقيها. وظلت المرأة شاردة فوق سريرها وكانت تتجه ببصرها نحو شىء آخر.

كنت أود ألا أسمع شيئًا آخر، وكنت أرغب فى مغادرة المكان ولكن كنت قلقًا من الرسميات. كان الأفضل بالنسبة لى، أن أختفىَ من هذا المكان، وأن أوجد مرة أخرى هناك تحت فى وسط المدينة، بعيدًا عن التمتمة البعيدة القادمة من الرواق، وبعيدًا عن هذه القراءة التى تسير على نفس الإيقاع. الآن، فى المنزل، ربما كان هناك سبت من نوع آخر، فقد كان يأتى النحاتون وهم يحملون أعمالهم المنحوتة، والموسيقيون بآلاتهم، كان الجميع يتحدثون ويضحكون ويتناولون أقداح الشاى، وكانوا يستمعون إلى نثر غير منشور لشعراء من «تريستة» ومن فرنسا باللغة الفرنسية، كان «جوتّى» يلقى ويعلق ويجفف جبهته، ودخل أشخاص لا أعرفهم ووضعوا لوحاتهم فى كل مكان تقريبًا، وظهر مرة

Twitter: @ketab_n

أخرى «جوتّى» وهو يقرأ لـ «سابا»، و«أنُجريتى»، و«مونتالى» «وكوازيمـودو»، وأصبح شعره المدلّى من رأسه، وكأنه ضباب معتـم بـه ألياف تعـجّ بحبّات من الثلـج مثل نبـات المعلاق، مثل الصقيع الذى بدأ يحل بهذه الحجرة أو على الأقل كما يبدو لى.

نهضت فجأة، أو مـن الأفضل، أدركتُ أننى نحجت فى ذلك. أخبرتهـم أننى سأرحـل فتوقفتْ القراءةُ فجـأة. أشارت الممرضة العجـوز إلى الكتاب وقالت «اتركه مـن فضلك لنا، فهو يروقنا». أجبـت: «للأسف إنـه أمر مستحيـل»، واستعـدت الكتاب بحركة سريعة إلى حد ما.

كانت المرأة فى مخدعها تنظر إلىّ وهى خالية البال.

قالت لى: «عانقنى».

استغرقـتُ قليلا من الوقت لأقطع المسافة التى تحولت فجأة إلى قصيرة من «حضرتك» إلى «أنت».

وفى المـدة التى استغرقتها من المستشفـى إلى المحطة، تحول لـون السمـاء إلى الرمادى. هل نحـن فى النمسا؟ ربمـا أجد أيضًا التـرام الأبيـض والأزرق، والـذى ينطلق بانتظام مـن الميدان

Twitter: @ketab_n

الصغير وحولـه أحواض الزهـور، وكأننا أمـام ماكيت للمصمم «ماركليـن»، وبـدت حافة الرصيف من دون أكـوام التراب اللا نهائيـة التى عادة ما تتجمّع هناك، وأحـواض الزهـور وقد برزت بوضـوح فوق الرصيف مـن دون أن تشوبها تشققات أو تهاجمها الأعشاب علـى امتداد الرصيف. سِرْت بين تلـك الحواف السفلى المنظّفـة بعنايـة، والتى تدفع الميدان وكأنـه ينزلق من فوق حذاء لامع. وتدفع السلافين بحقائبهم الكثيرة وربما تدفعنى أنا أيضًا.

وبداخل الحافلة بذلت مجهودًا مضنيًا مع آلة العملات المعدنية، والتـى كانت ترفض استقبال العملة المعدنية التى معى. كانت تقف خلفى امـرأة، فقالت لى اشتـرِ تذكرة من أحد الـركاب وانْصعت لكلامهـا. وعندما وضعت التذكـرة داخل جيبـى، والتى جعلتنى أنتظـم مع السلوك المدنى العام، قالت المـرأة: «من يدرِ منذ متى لـم يستقل ذلك الرجل حافلة؟». استـدرت لأنظر إليها. وارتجفت عندما فكرت فى أن رغبتهـا الصغيرة القابعة فى ذهنها قد تصطدم وتتدمر بسبـب الاضطراب داخـل الحافلة. وعندمـا وصلت إلى المحطـة، كان الظـلام يعم المـكان تقريبًـا. ودخلت نفـس البار الذى دخلته فى الصبـاح، وجلست على مائدة، أستطيع من خلال الزجاج المحيط بها أن أتابع حركة القطار عند الرحيل.

Twitter: @ketab_n

نظـرتُ إلى الفتـاة الشقـراء النحيلـة، والتى بدأت تنظـر إلىّ بنظـرات غريبة. أخرجـت الفتاة مشطًا، وفـى كل مرة تقف فيها خلفى كانت تمشّط شعرها المسترسل وتضحك بملء فيها.

وفى النهاية، تركت الفتاة المشط معلقًا على جانب من شعرها، وقالت بصوت عالٍ: «لننتهـى معًا من تناول الجعّة الخاصة بى». تملّكتنـى الحيرة، أيضًـا لوجود الأفارقة علـى الموائد المجاورة، وكانوا يعرفـون بوضوح كل شـىء، والآن ينظرون فى فضول إلـى ما يمكـن أن يحدث. لم أرفـع عينىّ قط إلا عندمـا أُعلن عن رحيل القطار.

جلسـتُ فى شرفة القطـار السريع القديم ما بيـن مقاعد صغيرة متهالكة ومدن مرسومـة بالفحم على لوحات مصفرّة من القماش. إن علـم الديناميكية الهوائية، فى ذلك العصر، ربما كان فى بدايته محدبًا، وليس حاد الزاوية، كمـا هى الحال الآن. ضغطت بأنفى علـى زجاج النافذة حتى أتجنّب انعكاسـ الأضواء بداخل القطار، فقطـار «الست بيللو» هو الوحيد الذى يمكن من خلاله رؤية السكة الحديدية، كما يراها قائد القطار فى قمرته التى توجد بأعلى. مكثتُ أشاهد الظلام الذى كان يمر مسرعًا.

Twitter: @ketab_n

ومرت فترة من الوقت، شرعت بعدها أبحث فى كتاب المؤلف الأشقر، عن الصفحات التى من أجلها اشتريته: «... أخذت أول انطباع عن الطريقة التى نمّى بها هذا الشاب ثقافته يوم أن ذهبت لزيارته فى منزله أثناء فترة مرضه القصيرة».

كان «بازلن» يرقد على فراشه فى استرخاء فوق الوسائد، وكان على الكومودينو بجواره يوجد صف مرتفع من الكتب، وعلى جانبىّ السرير يوجد صفان آخران من الكتب. فقد كان غارقًا فى الكتب. وقد اعترف لى بعد ذلك بأنه عندما لم يكن مريضًا، كان يقرأ الكتب فى سعادة وهو مستلقٍ فوق السرير... وفى سن الثامنة عشرة كان يعرف أكثر منا جميعًا شبابًا وشيوخًا... كان لديه حدس خاص فى اكتشاف مؤلفين غير معروفين جيدًا، ثم بعد فترة قليلة يصبحون ملء السمع والبصر... وفى مدينة «تريستة» كان هو من أوائل، بل هو أول من استوردهم... وكان يقال عنها «ثقافة فوضوية»، وكنت أراها أنا بالأحرى «هواية راقية». فمثل هذا الشخص، فى مدن أخرى، كان يمكن أن يخلق حوله بيئة ثقافية، حياة أشبه بحياة دار النشر... ولكن فى «تريستة»، والآن أيضًا وقد وضعت الحرب أوزارها، فإن الأمور تختلف تمامًا...

Twitter: @ketab_n

كنـت أتخطى السطـور، وأعيد قـراءة نفس العبـارة دون أن أدرك ذلـك. لم أكن أفلح فى تمييز إيقاع الكلمات عن إيقاع القطار وعن إيقاع تنفسِّى إلى أن بلغ الإجهاد بى مبلغًا كبيرًا، فأطبقت فمى ورحت أغط فى سُباتٍ عميق.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثانى

كان الأمر يختلف عن المرة الأولى. كنت أعرف عددا من الشوارع والمطاعم وبعض المكتبات وواحدا من المستشفيات. ولكنى كنت أطمئن إلى الطريق المحاذى للبحر، وفى اللحظة المناسبة، اتجهت نحو اليسار لأدخل المدينة؛ واستدرتُ باستقامة وكأننى جندى فى سَرِيّة عسكرية. وبوجه عام كنت أستطيع أن أتصور أنه كانت هناك مرة أخرى، وأن أطوِىَ صفحة الماضى وأضيف وأقارن. كل هذا لم يكن يعنى الكثير، ولكن لم يكن بالقليل.

نزلت من القطار، كنت ما زلت بالمحطة، وبحثت عن رقم فى دليل التليفون، ولكنى لم أعثر عليه. فقررت هكذا أن أذهب عند بائع الكتب، والذى يشبه فى هيئته بائع الأسلحة، فقد كان من قبل بداية طيبة لى. كان طابور انتظار سيارات التاكسى طويلا للغاية، لذا كان من الأفضل الذهاب لمحطة الأتوبيس. كانت لافتة المحطة تشير إلى ستة أرقام، إحداها سيذهب بالتأكيد إلى الحى اليهودى. مر الوقت ولم يأتِ أى أتوبيس. هل هذا معقول؟ داخل المحطة تقريبًا، ومحطة الأتوبيس الرئيسية، وتوجد ستة أرقام، ولا تمر عربة واحدة للنقل العام منذ عشر دقائق؟ ورغم هذا فإن الحافلات

Twitter: @ketab_n

موجودة: خاليـة ومغلقة داخل الميدان، حيـث أدركت أيضًا أننى الوحيد الذى يقف فى انتظار أتوبيس.

عدتُ مرة أخـرى إلى طابور سيـارات التاكسى مثل متزحلق علـى الجليد يقف فى انتظـار التليفريك. وقفتُ فـى نهاية الطابور خلف سيـدات شرقيات فى عمـر الشباب، ربما كـن من تايلاند. كـن يرتدين ملابس على الطراز الأوربـى، ولكنها مصنوعة من الحرير الخفيـف: ماذا سيفعلون هنا فى «تريستة؟» وماذا سيفعلون فـى هذا البـرد؟ إن إضراب الحافلات وطابور سيـارات التاكسى أطاحا بالعزيمة التى كانت تتملّكنى عندما نزلتُ من القطار، بعد أن خلـدت إلى النوم لقرابة نصف ساعـة فى آخر مرحلة من الرحلة. نظرت إلـى الأشخاصـ الذين يقفون مـن قبل، وأخـذت أحسب عددهم مع عدد التاكسيات المتلاحقة ثم سئمت ذلك.

نزلـت من جديد عبر الطابور، وعندمـا تخطيت الأول انتفض غاضبًـا عندمـا رآنى أتجاوزه بخطـوة، فى اتجـاه مخالف، نحو سيارة التاكسى التى كانت تقترب، وكان عليه أن يستقلّها.

الآن أصبـح أمرًا مريحًا أن أذهب عند بائع الكتب، رغم ذهابى إليه سيرًا على الأقدام لمسافة طويلة فى هذا الجو البارد.

Twitter: @ketab_n

يبدو البائع دائمًا وكأنــه لا يعرف شيئًا، أو أنه ليس عنده كتب؛ كان يتحدث بفتور وكأن كلماته معروضة فوق المائدة، وهو يقف مستعدًا ليضعها فى مكانها.

كان بالمكتبة زبائن كثيرون فى ذلك اليوم، وكان البائع منهمكًا معهم. انتظـرتُ إلى أن غادر الزبائن المكتبـة دون أن أنظر إلى الكتـب. ثم انتقيت سـؤالاً مختصرًا للغاية، «مـن لا يزال على قيد الحيـاة؟»، هذا السـؤال لم أكن على قدر مـن الشجاعة لأوَجّهه له فـى المرة السابقة، أخرج الرجـل اسمين ورفع كتفيه لأعلى وقال «حسنًـا»... سألتـه إذا كان يعرف عنوان أحـد الاسمين. أطبق شفتيـه وتنهّد قائـلاً: «ربما يكون فى منـزل أحد أقربائـه أو ربما يعرف أعضاء الجالية الإسرائيلية عنه شيئًا، من يدرى...».

عبـرت المدينة فى مسيرة متعرجة وفقًـا لإرشادات مختلفة فى كل مـرة. كان البرد قارصًا بالفعل. وعند بوابة الجالية كان هناك هاتـف ذو شاشـة. وعندما ضربت الجرس أضـىء نور، فحكيت فـى الهاتف ماذا كنت أريد. كان الرد بـأن أتجه قليلاً نحو اليمين. ففعلت وبقيت فـى مكانى هكذا لمدة دقيقة تقريبًـا، دون أن يحدث شىء. ثم انطفأ النور وفُتحت البوابة.

Twitter: @ketab_n

عندمـا صعدت إلى أعلى وجدت بابًا مفتوحًا، ورواقًا طويلا به حجرات كلها مغلقة، عدا صالة الانتظار فقد كانت مضاءة، ومكتبة كبيرة ذات نوافـذ حديدية. وكان يجلس على أحـد المقعدين شاب بديـن بعض الشـيء يرتدى قبعة علـى رأسه. ومع هـذا السكون التـام، كان أمرًا غريبًا أن أسمعه يحدث ضجيجًا بإيقاع ثابت دون أن يتحدث أو أن يرفع بصره عن أطراف الكتب المشقّقة فيما وراء الشبكة المعدنية.

وعندمـا خرجـتْ السكرتيرة من المكتـب، وسألته مَن يكون، نهضـ واقفًا على قدميـه وقال: «إسرائيلـى، إسرائيلى يا سيدتى» قال ذلك بصوت قوىّ، كما لو كان من الجلى ألا يكون لأحد سواه الحـق فى الوجود فى هـذه الغرفة. لمست المـرأة جبْهتها وقالت: «بالتأكيـد! الآن تذكـرت». أما عـن دورى أنا، فهـى بالتأكيد لا تستطيـع أن تتذكر. قالت: «فى الواقع، كان يبدو لى أن حضرتك لسـت من هـذه المدينة». وحصلـتُ على العنوان ومعـه النصائح والإرشادات.

دخلتُ أول كابينة واتصلـت بالرقم الذى أعطوه لى، فرد علىّ صـوت لشخص عجـوز، كانت سيـدة، وكان بصوتها خلل يسير أرغمنـى على أن أستمع لها فى هـدوء وحذر. قالت السيدة: «لكن

Twitter: @ketab_n

لماذا تبحث عنه؟»، وهنا واجهتنى مشكلة: وهى؛ أن أنجح فى أن أشرح لها كل شىء فى موقف مثل هذا بأقل عدد من الكلمات.

كان يجب علىّ أن ألغىَ استعمال ألفاظ مثل« ينبغى علىّ» أو «أنا هنا»، وأن أنزع الأفعال المساعدة، وأن ألجأ إلى الأسماء البسيطة ـ أو إلى الاسم فقط ـ تاركًا لها أن تتخيّل العلاقات بينها. وظللتُ أنزع فى الكلمات إلى أن استقرت الأمور من تلقاء ذاتها، أو لاستنادها على شىء آخر، ولكن الأمر لم يكن ليأتى معى تلقائيًا.

ردت السيدة: «ابحث عنه فى المقهى». وبذلت مجهودًا لإعطائى معلومات عن عنوان المقهى، كانت هناك سلسلة طويلة من الأسئلة مثل: «هل تعرف أين هى؟»، وسلسلة أخرى من إجابتى بـ «لا». ثم بعد ذلك مجموعة الإيضاحات «مثل أوّل يمين» وفى آخر الطريق على اليسار. ثم قالت السيدة: «إذا لم تجده هناك، لكن سترى أنه هناك، لأن المقهى الآخر مُغلَق اليوم، أعِدْ الاتصال بى بعد ساعة».

كان يجلس بالمقهى ثلاثة أشخاص على الأقل. كان يبدو من مظهرهم العام أن واحدًا منهم يبدو أنه الشخص الذى أبحث عنه، لذا سألته، ولكن لم يكن هو. كانت هناك موائد قليلة وكان

Twitter: @ketab_n

المقهى هادئًا بصورة غير معتادة. كان الرجلان الآخران يقرآن الجرائد، وكانت كل جريدة مثبّتة على حامل من الخشب. لم أكن أرغب فى إزعاجهما، ولا سيما بسؤال مثير للخوف مثل: هل هو حضرتك؟ رأيت أنه من الأفضل أن أسأل «البارمان»، ولكن للأسف لم يكن يعرف شيئًا. يا للخسارة، إنه بالتأكيد هنا. وعلى الرغم من اقتناعى بذلك، ما إن انتهيت من تناوُل قدح القهوة، حتى نهضت من فوق مقعدى وغادرت المكان.

أعدت الاتصال مرة أخرى، وفى وقت لاحق، بنفس الرقم. رد هو علىّ، لم يرد الاستماع إلى تفسير، وأعطنى موعدًا فى مقهى آخر خلال ساعة. كان ذلك بمثابة خطوة إلى الأمام، وهى القدرة على تميّز الزمن والتفكير فى أن هناك «ساعة ميتة». وكأنه من اللا تحديد الذى ليس به تبكير أو تأخير، ظهرت أخيرًا لحظة توقف مع كل ما يتبع ذلك من أمور.

سرتُ على مَهَلٍ فى اتجاه كنت أراه يصل بى إلى الموعد، دون أن أختار الطريق. كانت تهب رياح محمّلة بتراب رمادى اللون. ركب رجل عجوز سيارة قديمة ماركة «تاونوس» وجلس فى المكان المخصص للركاب وترك ساقيه على الرصيف، ثم استدار بربع جسده ووضع ساقيه داخل السيارة.

Twitter: @ketab_n

أغلق الشـاب مرة أخرى باب السيارة، ولـفّ حولها ثم جلس أمـام عجلـة القيادة. فكّـرت فى الثـروة التى يمكـن أن تنتقل من شخص لآخر. وأعنى هنا الميراث الذى يُعد فى نهاية الأمر بمثابة الشهادة الوحيدة الحية على النَّسب. وفكّرت فى السيارات القديمة: مـرة أخرى السيارة «البـكار» الرائعة المكشوفـة بلونها الأزرق الداكـن، وغطائهـا الأبيض المصنوع من النسيـج تعلوه طبقة من التراب الساكن، كما هي الحال فى السيارات التى تظل لفترة طويلة واقفة فى مكانها. أو تلك السيارة «أوبل» بطلائها السميك ومقدمتها اللامعة. هل العنايـة بالسيارات ونوعية القماش الذى يرتديه كبار السن هنا، هل هى صور متساوية للحفاظ على الأشياء.

عندمـا حددت المقهى كانـت تتبقّى بضع دقائـق على الموعد. واصلـت السيْـر حتى وصلت إلـى شارع مرتفـع، استدرت نحو ناصيته، وارتكنت بظهرى على الحائط. وحاولت أن أستمتع بقدر مـن الشمس. لا توجد فى ذهنى فكرة محـددة إذا ما طرحت جانبًا فضولى المتعلق بالرجل الذى سوف أراه بعد قليل، وأسلوبه الذى سوف يكون، بـلا أدنى شك، مختلفًا عن الـذى أتصوره. تابعت ببصرى السيارات التـى كانت تقترب من التقاطع، وكررت ذلك عشـرات المرات. إنـه لأمر غريب حقًا: فالمسافـات والمساحات المخصصة للقيادة متساوية للجميع، وكذلك التحركات، ولكن كل

Twitter: @ketab_n

فـرد يمر من هنا أمامـى يتصرف بصورة تبدو لـى غير عادية ثم يذهب بعيدًا.

لقد تعرفـت إليه فورًا من بين الأشخاصـ الذين كانوا يجلسون علـى المائدة: كان هـو الجالس فى البار الآخر فـى المؤخرة على اليمين، ولو كنت نظرتُ إليه بصورة أقل سرعة، ولو أننى طبقتُ نظام الاحتمالات بصورة عكس المعتـادة، لاستطعت أن أتعرف إليـه. الآن يجلسـ فى ركن من هـذا المقهى الذى يبـدو فى حالة جيـدة، وكأنه أعيد بناؤه؛ كان يجلس بجوار الحائط تحت مرآة فى نهاية المقهى.

نهض علـى قدميه وابتسم قائلاً: «هنا بالنسبة لى أشبه بالمكتب. بـل سوف تأتى أيضًا سيدة شابـة لأعطيها بعض الأوراق. ولكنها مسألة لحظة واحدة، هذا لن يضايقك، أليس كذلك؟».

قلـت: «لا، بالتأكيد». كان الرجل يشبـه إلى حد كبير «هنرى ميلر»، غير أن عينيه كانت تتجه إلى أعلى.

شرعـتُ أحكى لـه الموقف، وكان هو يفكر فيمـا أقوله، وكان تارة يشيـر بالموافقة وتارة أخرى يظـل مرتابًا. كانت التجاعيد، أسفـل قفاه الحلق، تظهر مرة وتختفى مرة أخرى فى المرآة، وفقًا

Twitter: @ketab_n

لحركـة رأسه. فى النهاية ثنَـى رقبته قليلاً ونظـر بالخارج، فيما وراء الزجاج. قال لـى: «كان يصارع، لم يكن من أولئك الذين يتنازلون عن المناصب العليا، ولكن كان يحاول أن يأخذ شيئا من الحياة، ولكن أعتقد أن الأمر انتهى بخيبة أمل».

لكـن ربما ما أقوله أمر شخصى جـدًا. فأنا للأسف رجل محبط إلى حد كبير، آمالى القليلة وربما وصفته بأشياء خاصة بى».

أشـار إلى النادل؛ وأمره فـى ودٍّ كبير بالحضور للحظة، وهى اللحظة التى استغرقتها فى اختيار عصير عنب، وكان من الواضح أنه كان هناك اثنان وأنا. ثم واصل حديثه قائلاً: «كان يبدو لى أن بداخله حزنًا عميقًا، يصل إلى حد اليأس تقريبًا فى بعض الأحيان. كان الآخـرون يقولون عنه إنه رجل معقّـد وعصبى، وكان ذلك يسبـب له صعوبات، ولكن كان بداخله شىء إبيقورى فى صورته الطيبة، وكان يعرف كيف يستمتع بالأشياء».

الآن تجـول بخاطـرى بعض خطاباتـه، وكانت هنـاك جملة عثرت عليها فـى مواقف عديدة، كانت تقـول: «إننى أستمتع قدر العالم ونصفـه». فى البداية شعرتُ بإحساس غريب وكأنها عبارة رائعة للغاية ومقصودة وقاطعـة؛ أو ربما كان يضايقنى بالفعل أن

Twitter: @ketab_n

أجدهـا تتكرر أمـام أشخاص مختلفين، وفى سنـوات مختلفة مثلها مثل العبارات التى نثق بشدة فى نجاحها. وقد بذلت جهدًا فى فهمها إلى أن أصبحت عبارة عادية، ولم تعد تبرز عن بقية العبارات.

على أية حـال أفضّل ألا أتحدث عن ذلـك. نظرتُ إلى النادل وهو يضع المشروبات على المائدة بعناية فائقة وبابتسامة عريضة، وقـد كان من المحيّر أن أعتقد أن هذه المعاملة الحسنة الزائدة على الحد تجاهى يرجع سببها إلى وجود ضيفى هذا.

قال لـى: «ذات مرة ذهبت لزيارته فى روما. لم أكن قد رأيته منـذ عشر سنـوات. كان وجهه قد تغير تمامًا. يبـدو لى أننى أراه ، أراه جيدًا هـذا الوجه. لقد تأثرت كثيرًا وبصورة مؤلمة، لأننى كنت أحبه جدًا ولم أر وجهه هكذا من قبل».

قلـت: «ربما كان السبب هو وجوده أمام شخص من تريستة». قلت ذلك وأنا أتمنى أن ما قلته لا يكون له أثر سيئ.

رد دون أدنـى تأثـر بما قلتـه: «بالفعل رحل مـن هنا بصورة قاطعـة». وعـاد بشكل رسمى مـرة واحدة فقط ليدفـن أمه. لكنه كان ودودًا جـدًا معـى، وكنا نتقابـل أيضًا فى ميلانـو قبل اندلاع الحـرب. أتذكر نشاطه الكبير حتـى وإن كان يبذل مجهودًا عندما

Twitter: @ketab_n

كان يتحدث. كان يروقه التناقض والنكتة مثل كل يهودى مشابه له. كان إلى حد كبير غير مبالٍ سواء باليهودية أو باللوثرية، لكن كان بداخله شىء، ليس اليهودى الأصلى، لا: ولا بداخلى أنا أيضًا، أو بداخل الآخرين، إنه شىء آخر مختلف عن اليهودية القديمة، هو بالأحرى نزعة نفسية، وأسلوب نتخذه لنكون نقادًا أو اصطفائيين، وحبه للنكتة، وهذه الأخيرة لديه منها بعض الشىء. وربما أيضًا الشعور بالغربة أو الإحساس بالمواطنة العالمية.

كان حفيف الجرائد وقرقعة أقداح القهوة، أو صوت تحريك المقاعد يغطى حالة السكون المريبة للغاية. كان الموقف يتطلب ملاحظة منهجية هنا، بين الرجال العجائز، والانتباه لأولى حالات الاستسلام، إلى ياقة القميص التى أصبحت فجأة واسعة قدر إصبعين، وإلى حلاقة الذقن المهملة إلى أن نصل إلى لا شىء، الشىء المفزع، وأعنى به نظرات الكل، وهى ليست موجّهة نحو الشخص المراد، وإنما هائمة حوله وكأنه صورة غير واضحة تقف فى الوسط.

انتظرت حتى ينتهى من تناول قهوته، وهو يجلس ورأسه تميل إلى الخلف، نظرت إلى الخلفية ذات اللون البيج الموحد، والتى تبرز اللون الأسود لأذرع ولأرجل المقاعد الخشبية

Twitter: @ketab_n

المقوّسة والمنقوشة الموجودة هنا بالمكان. قال لى: «لقد كتب لى خطابًا يحتوى على قائمة بالموتى الذين سقطوا فى نفس سنِّه الحرجة، وهو اثنان وأربعون عامًا. كان يتحدث عن «إسبينوزا وفان جوخ»، ولكن لا أعتقد أنه تعرّض لأزمة فى تلك الفترة. ربما حدث تطور . . . ربما كان يعتقد فى فترة شبابه أنه يستطيع التغير، فلم يكن مدركًا للموقف برمته. ثم نضج بعد ذلك، ربما نتيجة لصدمة نفسية، وعلى أية حال فقد اضطر أن يهجر بعض الأوهام. وعمومًا كان يعيش للاستمتاع بالقيام بتجارب، فمنذ أن كان شابًا، لم يحدد هدفًا لحياته، وإنما كان يقول هو ذاته؛ إن هدفه هو الاستمتاع بالحياة. والاستمتاع بالحياة ليس معناه أن نكون سعداء لأننا أحياء. وهذا الاستمتاع الذى كان فى بدايته تلقائيًا حتى نقطة معينة ربما أصبح شيئًا تقليديًا . . . هذه هى انطباعاتى الحالية. وربما بعد عشر دقائق سيكون لدىّ انطباع مختلف».

نظرتُ إليه ولم أفلح فى فهْم ما إذا كانت هذه الطريقة فى تخفيف حدة صوته، والتى يمارسها نتيجة لكبر سنِّه، هى نوع من الحذر أو أنها جزء من النبرة الحزينة المعتدلة والمفعمة بالحيوية التى يتحدث بها عن الأشياء. قلت له: «كيف كان يتقبّل مسألة عدم الكتابة، أقصد مسألة الكتابة فى إطار عائلى؟»

Twitter: @ketab_n

رفع كتفيْه وقال: «كان يريد أن يوضّح أن الأمر لا يعنيه. وفى أحيان كثيرة كان يردد قائلاً: من الأفضل ألا يوجد الكُتّاب أصحاب المواهب المحددة، وربما كان هو نفسه يشعر أنه ليس فى طليعة الكُتّاب المتميزين. وربما، كما يقولون، لم ينشر أعماله لأنه لم يكن يهتم بذلك، وربما كان ذلك أمرًا حقيقيًا، وربما كان يكتب من أجل ذاته، وكانت هناك بعد ذلك فترات كان يرغب فيها فى نشر مؤلفاته، ولكن ربما اعتقد فى النهاية أن أعماله غير جديرة فلم يكترث بالأمر. ولا أعرف لماذا لم يفعل أفضل من ذلك. ولكن كنا نتوقع جميعًا أن يقدم عملاً جيدًا . . .».

ربما سرحت قليلاً لأننى تلقيْت سؤاله؛ «وما فكرة حضرتك؟»، وكأنه متكرر. أو الحق؛ أننى لم أكن شارد الذهن ولكن الإشارات الخارجية لشخص أو موقف تتغلب على ترتيب الكلمات. فى الوهلة الأولى تبدو أنها تحتويها ثم تتخطاها ثم تجعل الاستماع ينحصر إلى مجرد إحساس مبهم بالسماع. قلت له: «نعم، ها هو ذا . . .»، وودت أن أرد بشىء يتعلق بالكتابة، أو بتحطّم السفينة الذى ورد فى قصة «قبطان الطريق الطويل»، حيث إن الأمريْن كان يوجد بينهما تشابه كبير. ولكن الأمر كان يبدو مبهما. وفى النهاية بدأت أتحدث عن «الصعوبة». قاطعنى قائلاً: «كانت لديه

Twitter: @ketab_n

صعوبة فى الترتيب والتنظيم. وأعتقد أننى لم أسأله قط: هل عندك شـيء تنشره؟ لِمَ لا تنشر؟، فهذه أسئلـة لا توجّه، ومن الفظيع أن نسـأل من ليـس لديه شيء يقولـه «ماذا تعـد الآن؟». ولكن كنت أعـرف أنه كان يكتب، وأن ما يكتبـه كان دائمًا شيئًا غير مكتمل. كنت أرى أن عليه أن يتوجه نحو الأشياء الرئيسية أكثر من الأمور الأصليـة أو الشيّقـة. إضافة إلى أنه كان عليـه أن يقرأ بتعمّق أكثر أعمال «هوميروس» و«دانتى» أو على الأقل «كافكا» و«دوبلن» أليس كذلك؟ كنت أرى أنـه كان عليه أن يبحث داخل ذاته. كانت لديـه أشياء ولكـن كان لا يُلقِى لها بالاً. فإن لم يكـن الشيء جديدًا وأصيلاً بما يكفى، فلا قيمة له فى رأيه. وربما كان ذلك مشكلة».

فكرت قليلاً ثـم أجبت قائلاً: «نعم ربما الأمر كذلك. كان يقول إن القيمة الوحيدة تكمن فـى المرة الأولى». كان يقول أيضًا: «لا يمكـن كتابة كتب، أنـا أكتب فقط ملاحظات فـى نهاية الصفحة». توجـد فقـط جملتان لا أُفلِـحُ فى وضعهمـا معًا. لا أعـرف، فهما بالنسبة للماضـى متلاحمتان تمامًا. لكن بالنسبة للعصر الذى عاش فيه، وبالنسبة لمـا كان يستطيع أن يقوم به، بعد كل . . . عمومًا، مـن الصعب أن تكون هناك «مرة أولى» إذا كان الأمر بوجه عام لم يعد ممكنًا».

Twitter: @ketab_n

نظـر إلىّ دون أن يتكلم. ابتسمـتُ وقلتُ فى نبرة أخرى: «هل كان يخشـى التفاهة؟». رد قائـلاً: «أرى أن الخـوف من التفاهة يجعـل الكاتب يخاطـر كثيرًا. وحقًـا كانت لديه بعض المخاوف مـن التفاهـة، وهو شـاب أكثر منها وهـو ناضج. ليس نوعًا من الاستعلاء. ولكن كانـت عقبة شديدة تعترضه فى كل طريق عام. وهذا ما أراه أنا من وجهة نظرى كواحد من الحرس القديم. كانت تكمن هنا نقطة الاختلاف بينى وبينه وكنت أقول له ذلك».

ظـل هكـذا شاخص البصـر على رخـام المائـدة، حيث كانت البصمـات علـى الأكواب تعطـى الإحساس بالحصـار بصورة واقعية.

وواصـل حديثه قائـلاً: «وتأتـى بعد ذلـك القـراءة باحتراف للناشريـن مثلمـا كان يفعـل هو . . . اسمـع حضرتـك، رغم قلة إمكاناتى، فإنه عندما حققت هنا شهرة نسبية تلقيت كتبًا كثيرة لم أكن أتلقاهـا من قبل. كل هذه الكتب كانت تقلل من عزيمتى فى الكتابة. ولم أكن أكتب شيئًا فى ذلك الوقت، وكنت أهتم فقط بالشىء القليل الـذى كنت قد كتبته، وهو أيضًا كان أمـرًا شاقًا علىّ. ولكن كانت جميلة أيضًـا، ولكن بالفعل كثيرة، وكنت أقـول لنفسى: لكن ماذا سأضيف أنا إليها من الكتب؟ ربما حدث معه مثل ذلك أو على الأقل

Twitter: @ketab_n

نهض وهـو ينهي عبارته، كأنه كان يضـع باب المقهى نصب عينيه وقال: «ها قد حضرت هذه السيدة . . .».

استـدرتُ. ونظـرتُ إلـى المرأة التـي كانت تمـر من خلال الموائـد، وهي تبتسـم. لم تكن شابـة كما قال هـو، ولكنها كانت جميلة، أو كان جميلاً رداؤهـا. كانت ترتدى فى يديها قفازًا مُغلَّقًا بـزرار عند المِعْصَم، لـم تخلعه حتى فى لحظـة التعارف. تبادلا بعضـ الوريقات وتحدثا بإشارات سريعـة، ونظرتُ أنا إلى جهة أخرى. طلب منها أن تتنـاول شيئًا «معنا»، فردت قائلة: «الوقت متأخـر». وقالت لى، وهـى تحيينى بوجهٍ مشـرقٍ: «تهانيّا». لم أكـن أعرف جيدًا إلى ما تشير، أو ربمـا السبب فى ذلك هو؛ حالة الكسـل التى حلّت بى فى ذلك الصباح. ولم يسعنى الوقت حتى فى أن أرد عليها كما يجب.

وعندمـا جلسنا من جديد، استأنف هو حديثه دون أن يعلّق على المـرأة ودون أن يبحث عن الكلمات: «لا ينبغى أن تعتقد أنه كانت لديـه صرامة زائدة علـى الحد، أو حمى الإتقـان، وأنه كان غير مسرور، وأنه كان سيعاود الكتابة دائمًا. وإنما كانت الصرامة فى عـدم رغبته فى الهَجْـر، وفى تقييم ألمه مـن دون تواضع، وفى إرادة الانفصـال والحكم. وهذا هـو انطباعى بالتأكيد: لكن لو كان

Twitter: @ketab_n

قـد تقبّل ذاته أكثـر ، وقلل من الحكم عليها ، ولـو كان قد شعر بأن الصعوبات لم تجعله ضئيلاً ، لكان استطاع أن يعبر عنها . والبعض ينفى ذلك ، ويقولون إنـه قد حقق ذاته ، كما كان يريد ، وإذا كانت هناك أشياء لم يقم بها فإن ذلك لأنها لم تكن تستهويه» .

قلـت : «لا أعـرف . لقـد قرأت ذات مـرة أن «الكتابـة لم تكن تستهويـه» ، ومرة أخرى أنه كان «أبعد من الكتاب» . ولقد فكرت فـى المساحة التى توجد بين الأمريـن ، وفى المعاناة التى تبذَلُ فى كل مـرة فى نقل كل شىء إلى هنـا أو إلى هناك . ووسط كل هذا ، ربمـا يوجد كاتب بلا كتب ، من يدرِ كم يوجـد منهم ، الآن أيضًا ، حتى هذه اللحظـة . لكنه كتب بصورة مستتـرة كمًّا يكفى لأن نفهم منـه أنه لم يكتـب . ولهذا السبـب فإنه هناك فى تلـك البؤرة . وقد قـرأت أيضًا أن تلك البؤرة لا توجد ، إنما هـو الفراغ وأحيانًا كان يبـدو لى أنـه لا يوجد شىء أقـوى من الفراغ أو العـدم ، إنه يحل كل مشكلـة ويهذّبها ويجد لهـا مبرراتها . وإذا مـا صوّرنا الفراغ بالنسبـة للإحساس ، فسنجده شيئًا واضحًا مثل الفيضان أو الغروب أو النهـر . . . وفى بعض الأحيان أرغـب فى أن أكتشف أنه حيثما يوجـد الفراغ والمعاناة من الفراغ فـإن الأمر ينتهى به إلى العثور على الرضا . . .» .

Twitter: @ketab_n

انسحب بمقعده إلى الخلف بعيدًا عن المائدة، وارتكن على الحائط فى حذر. ربما انتقى من بين ما قلته الجوانب المفيدة. ثم رد قائلاً: «اسمع، أنا لا أملك أن أقول لك، إذا ما كانت توجد إمكانية الذهاب فيما وراء الكتاب. ربما يكون هو قد بلغ ذلك. فأنا على سبيل المثال، قد كتبت هذا القليل الذى كتبته هكذا، لأننى أتيحت لىَ الفرصة، وأتصور أننى حتى، وإن لم أكن قد فعلت ذلك، لما ندمت كثيرًا. يمكن أن يحدث أيضًا هذا، يمكن أن تكون هناك نقطة يكون فيها المرء، ليس مثل الثعلب والعنب، ولكن يقول فيها صراحةً: لا يوجد هدف فى أن أكتب كتبًا، لقد قمت بأفضل ما عندى، لقد عملت أشياء حققت لى الرضا الكامل، وهذه الكتب سأهجرها. بالفعل كثيرون من بيئتى، اعتقد أنى أقلّ من الآخرين، كانت لهم، على أية حال رؤية خاصة فى مسألة الكتب. فالكتابة كانت أمنيَة كبيرة. وللعلم، فالكل هنا إما شعراء أو فلاسفة. ولماذا نكتب؟»

قلت له: «ولِمَ لا؟»

رد فجأة: «لكن لا أحد، إذن، كان سيضع الأمور فى نصابها، لا أحد كان سيكتب أو على الأقل «لِمَ لا . . .».

Twitter: @ketab_n

ثـم واصل كلامه بنبـرة أكثر هدوءًا: «الآن، مـن المحتمل أن تكون رؤيته الخاصـة فى الكتب قد اكتسبها فى شبابه ثم تجاوزها. وأتصـور أن حضرتـك تريـد أن تعرف لماذا أو ربمـا لأى فكرة كتابـة أو بقاء فى العالم، واحد مثله أعتقـد ألا . . . أو لم يرد أو لم يعـرف ماذا يعمل . . . ولكن اسمع، لا أعرف أكثر من ذلك . . . وعموما فقد حان الوقت، ويجب أن أكون بالمنزل فى الميعاد».

سرنا بالخارج عبر طريق فسيح تحيط به الأشجار والفاترينات فوق الرصيف. ومن حين لآخر كنت أذكر له بعض الأسماء يعقبها السـؤال: «هل هو حيٌّ؟» «هل هى على قيـد الحياة؟»، وكان يرد دائمًـا: «نعم بالتأكيد»، باستثناء مرة قال فيها: «ها، لم يعد على قيد الحياة». وفى كل مرة كان يُخْرِج من جيْبه أجندة وكراسًا صغيرة لتدويـن الملاحظات. وقام بنقل العنوان من واحدة إلى الأخرى، ونزع الصفحة وأعطاها لى. وعند الاسم الثالث بدأ يأخذ الأوراق المماثلة للتى انتزعها من قبل، من آخر جزء من الكراس.

قلت له: «هـل كان واحدًا ممن يسخـرون دائمًا؟ هل كان ممن ينزعـون الأرض من تحت أقدامهم إلى أن يتأكد من أنه غاص فى أعماقها؟».

Twitter: @ketab_n

أشاح بذراعيه من داخل جيوب معطفه، وأجاب وهو شارد البصر: «كانت عنده روح الدعابة، وهو ما تسمّيه أنت «السخرية». لم يكن يستلقى فوق الأشياء، وكان ذلك أمر جميلاً للغاية: كانت صورة من صور الإنسانية والتواضع بالمعنى الإيجابى هذه المرة. لم يكن يزهو ولا حتى مع نفسه بلا شك. وإن حدث ذلك فإنه يكون بسبب روح الدعابة وليس لرغبته فى السمُوُ ... ستقول حضرتك: إن أى شخص لا يتوقف فإنه سُمُوٌّ. وعلى العكس كان مختلفًا فلم يكن لديه الحس الجدلى المتدرّج على طريقة «جوته». فقد كان يغيّر جلده دائمًا، وهنا كانت تكمن عدم قدرته فى تحقيق شىء، فقد كان ينسى ما فعله، ليس رغبة فى السمو، ولكن لرغبته فى السقوط ...».

كان يراقب الأشخاص الذين نتقابل معهم بقدر كافٍ، وكان يسير وهامته عالية. وصلنا إلى إشارة مرور، وأشار إلى بوابة كانت توجد على الرصيف المقابل. وقال: «ها هى». وانتظرنا حتى أصبحت الإشارة خضراء ثم قال: «من الضرورى جدًا أن تتحدث مع «ليوبا». فقد كانت أكثرهم قربًا منه، وهى امرأة غير عادية. اذهب إلى لندن وتحدّثْ معها».

سألته: «كم تبلغ من العمر، سبعون عامًا؟»

Twitter: @ketab_n

«لا، كيف سبعون عامًا؟ «ليوبا» كانت من نفس عمره، وبالتالى فهى أكبر منى سنًّا. وأنا أبلغ من العمر أربعًا وسبعين عامًا، فهى إذن تقترب من الثمانين». أصبحت الإشارة الآن حمراء وبدأت السيارات فى المرور. نظر هو إلى السماء، وقال: «تريستة» تشبه «نيس»، لولا الرياح».

وعندما تغيّرت إشارة المرور، ودّعنى فجأة. تابعته ببصرى قليلاً وهو يعبر الطريق ثم انصرفت.

تصفحتُ قائمة الطعام داخل مطعم للوجبات الساخنة، دون أن أكترثَ للوقت الذى سأقضيه واقفًا على قدميّ أو لكون «الروزبيف» هو فى الحقيقة شريحة من لحم ثور مغطّاة بالصلصة الحرِّيفة. وفى مدينة صغيرة مثل هذه حيث تأخذ الأحداث حجمًا مختلفًا، فإن بعض الأحاسيس مثل، الحيرة بسبب الخشب القديم والطلاء الباهت لهذا المكان، أو الطابع المعدنى للأطعمة فى الأوانى الساخنة، ربما يجعله أكثر من متواضع.

بعد أن خرجت من المطعم، انتابنى من جديد إحساس رقيق بالاحتمال. فقد ذهبت لتناول الطعام، وكنت أشعر بأن كل شىء على ما يرام، الآن أشعر بالالتزام نحو شىء، رغم صعوبة تفسير ما هذا الشىء.

Twitter: @ketab_n

فكل شيء ازداد سوءًا بسبب الهدنة العامة التي قضيتها في ساعة الغداء، وعندما تكون المدينة في حالة عمل، فإنه يصبح من المحتمل أن نكون منعزلين وأغرابًا. ومع الهاجس الذي يتملّكني بين الحين والآخر بأن الآخرين قد يستطيعون رؤيتي، أينما كنت سائرًا أو متفرجًا، يجعلني لا أرى شيئًا.

وصلتُ على هذا النحو، إلى الميناء. وسرت عبر المقاعد النظيفة اللامعة مثل الأعمدة التي تُرْبَط بها السفن وبين اللافتات المكتوب عليها «ممنوع الوقوف»، لاحظتُ أن الطحالب تتم إزالتها من فوق الحواجز بصورة دورية باستعمال الأحماض، وعدم وجود أي سفينة بالميناء يزيد من قيمة الصيانة. لا شيء مهمل، ولا حتى طرق السكة الحديد أو أذرع الأوناش المطوية مثل أجنحة العصافير. كان يبدو أن الملاحة قد هجرت المدينة بصورة قاطعة ولم يتبق غير التجاويف المحددة والمخططة بعناية.

ذهبت إلى بار أمام المحطة البحرية، وهي محطة مجهزة تمامًا وبها ساعة تعمل بدقة، ولكن المحطة مغلقة. نظرت إلى الميناء وأرقام التليفونات التي بعثرتها على المائدة الصغيرة؛ كانت لأشخاص لا أدري ما عمرهم الآن ولا أعرف عنهم شيئًا.

نهضت سيدتان كانتا تجلسان على مائدة عليها مفرش من البلاستيك الملون، ووضعتا عملة معدنية داخل آلة الفونوغراف؛

Twitter: @ketab_n

فانبعثت أغنية أمريكية متكلفة تحمل بعض التلميحات. ارتكنت السيدتان على الفونوغراف وشرعتا تحركان سيقانهما قليلاً هنا وهناك مع إيقاع الموسيقى، وكانتا تنظران إليَّ بتركيز. وركزت أنا ببصرى على عداد النقاط للعبة البلياردو الكهربائية، وعلى الأرقام التى كانت تتصاعد بسرعة، كما هى الحال فى مضخات البنزين. كانت هناك ما يشبه المباراة بيننا في من سيقاوم أكثر: فى تركيزهما عليّ، وفى تركيزى أنا على النقاط. وحيث إن لاعب البلياردو الكهربائى كان يلعب بآخر كرة صغيرة، اعتقدت أننى فى نهاية الأمر سوف أستدير بمحض إرادتى أو رغم أنفى، لا أدرى. لم يكن هناك وقت، فكل الأحداث وقعت معًا: فقد انتهت الأسطوانة، ولاعب البلياردو الكهربائى وجّه ضربة للآلة التى كانت قد أنهت المباراة، وأطلقت السيدتان لدى خروجهما ضحكات خليعة.

وقد غادر لاعب البلياردو الكهربائى أيضًا المكان بعدهما بقليل. بقيتُ بمفردى مع فتاة البار، التى كانت تفتح من حين لآخر خزينة البار لتأخذ النقود المعدنية من أجل تشغيل الفونوغراف فتُحدث بذلك طنينًا. وكانت تضغط على الحروف والأرقام دون النظر إليها. كان للموسيقى أثر أشبه بالموسيقى التصويرية، فقد كانت تحوّل كل شيء إلى مشهد تجريدى مصاحب لها. وأصبح

Twitter: @ketab_n

كل شيء وكأنه صـورة: البار، والفتاة من جديد خلف المصطبة، والجرارات التـى كانت تمر مسرعة مـن وراء الزجاج، وبقائى ذاته هنا.

حاولـت أن أركّـز على الأشيـاء التى كان يجب علـىّ أن أقوم بهـا... وعلى العكس، كانت ترد بخاطـرى أشياء أخرى أعرفها من قبل. ذات مـرة اصطدمَ بواجهة زجاجية لم يكن قد رآها ونُقِل إلى المستشفى. وقبل وفاتـه بأسبوعين كرر نفس الحادث، ولكن مالك الواجهة الزجاجية الثانية تركها محطمة تخليدًا لذكراه.

كانت له فترتان طويلتان من الخمول والسُبات، وكان يستخدم فى سعـادة لفظ «فشل». وكان يقرر أن يبـدأ بنجاح فى العمل فى اليوم التالى، وكان القرار يتأجّل من يوم لآخر ولعدة أسابيع.

فـى خطاباتـه لا يضع أبـدًا حرفًا تاجيًـا بعد النقطـة. وقد كتب خطابـات كثيـرة جـدًا. ويستخـدم بصـورة نـادرة جـدًا الجمل الموصولـة. وقد وجد طريقة خاصـة به ليحتمى من الحر فى شهر أغسطس، وقـد وصف هذه الطريقة وكأنهـا منهج يحتذَى، وهى عبارة عن: تناول وجبة دسمة فى الصباح بعد الاستيقاظ مباشرة، وفـى منتصـف النهـار لا يتنـاول شيئًا، يأخـذ فقط حمـام شمس

Twitter: @ketab_n

وبعدهـا دشًّا، يلـى ذلك قدح من الشاى أو قطعـة من البسكوت أو قليـل من الحساء، مع تناول عـدد كبير من أقداح القهوة حتى يحل المساء. وفى المساء يتناول ما يحلو له من الأطعمة. وكان يرتدى القمصان الحريرية عند ذهابه لأصدقائه الأرستقراطيين، ويرتدى كنزته السميكـة المصنوعة من الصوف، عندمـا يقوم بجولة على قدميه؛ ولديه ملابس عادية يرتديها فى المنزل أو عندما يذهب عند أصدقائـه من غيـر الأرستقراطيين وغيـر المتجوّلين معه. وربما كان يميّـز بين أصدقائه على اختلاف أنواعهـم، وليس فيما يتعلق بالملابس، ولا يعرف المرء ماذا كان يفعل فى كل هذا الخضم.

خرجـت من البـار. وسرت فـى طريـق صاعد ملتـوٍّ محاط بالأشجار، تارة أجد أمامى منزلا صغيرًا وتارة أخرى أجد المنزل الصغير على الجانب الآخر. وفى كل منحنى تنعكس الرؤية وكأننا فـى مسبَح. كان هناك متسع من الوقت للوصول إلى وسط المدينة سيـرًا على الأقدام، وقد مررت بأطراف ضاحية لم أكن أتخيل أن بالمدينة ضاحية مثلها، بعماراتهـا الضخمة التابعة لهيئة القطارات وبملابسهـا المنشورة. استدرتُ، وتوقفتُ ثم عاودتُ السيْر: ربما لإحساسـى بالرتابـة، أو لتأثير البـرد فضلاً عـن الحس المرهف لأدنى حركة أو لأقل صوت.

Twitter: @ketab_n

وصلتُ إلى المحطة بعد أن سلكت أطول طريق إليها. وفى النهاية اخترت أحد الأرقام التليفونية التى كانت معى وقمت بالاتصال. وفى داخل التاكسى، أعطيتُ العنوان إلى سيدة لا أعرفها. سار التاكسى عبر كورنيش البحر، ثم صعد طريقًا به أحياء جديدة ذات طرازٍ معمارىٍّ متنوعٍ، مع وجود بعض المبانى الإسمنتية المنخفضة، والتى كانت تذكِّرَنى بأوربا الشرقية. وبدأتُ أقسِّم المدينة على هذه النحو. كل الأشياء التى توجد على يمين محطة السكة الحديدية يسير على «النمط اليوغسلافى»، وكل الأشياء التى توجد على يسار المحطة يسير على «النمط الإيطالى». ونحن هنا على يمين المحطة.

نزلتُ أمام عمارة رائعة المعمار، كانت هكذا رائعة وحديثة لدرجة أننى مكثتُ أتأملها مرة ومرة، ثم ذهبتُ إلى الإنتركم لأتأكد من الاسم. حاولتُ أن أقضىَ البضع دقائق المتبقية على الموعد بجوار بوابة منزل مجاور تحت شمس تحجبها السحب، إلى أن أطلّ رجل من شُرْفة المنزل وسألنى ماذا أريد، فغادرت المكان على الفور.

كان الجو باردًا، ولم يكن باستطاعتى البقاء أكثر من ذلك. عدتُ إلى الخلف قليلاً وقرعتُ الجرس.

Twitter: @ketab_n

انفتح الباب الزجاجى أمامى، ووجدت نفسى داخل بهو من النيكل والكريستال، وأرضية من الرخام اللامع. لم تكن هناك أبواب، كان هناك تشكيل من الخشب يصل حتى قمة الجدران. كانت الأبواب موجودة، ولكن كان من الصعب تحديدها بسبب هذا التشكيل الخشبى، لذا كان من الضرورى الانتباه إلى التقسيمات الدقيقة داخل المكان. وصلت إلى الدور الأخير، كانت هناك سيدة تقف عند المدخل، وكانت تبدو لطيفة، وكانت تبلغ من العمر نحو خمسين عامًا. ابتسمتْ قائلة: «كان يمكن لحضرتك أن تأخذ المصعد». أجبت قائلاً: إنه لا يوجد. ثم سألتها: «هل والدتك بالمنزل؟»، قالت: «لا، ولمَ؟». أخبرتها أننى كنت قد اتصلتُ بها عبر الهاتف، وأخذت معها موعدًا. فقالت: «إنها أنا».

كانت الإضاءة بالداخل مبهرة، وكانت الأرائك منخفضة للغاية، وكان الصالون الذى جلسنا به، يتكون فى جانب منه من شريحة من الزجاج، والتى من خلالها، وربما بسبب ميْل الخليج، والذى لم أنتبه إليه عند وصولى، يمكن رؤية المدينة من البحر. فى البداية اعتقدت أنها ذات مساحات كبيرة، وليست فقط وعرة وغير متناسقة. أو ربما لأنها من هنا تبدو بلا ملامح، أو ربما نتيجة لأنه أول مكان غير عام تطأه قدماى.

Twitter: @ketab_n

استمعتُ لما كان تقوله السيدة. وفى أثناء حديثها كنت أنظر، بين الحين والآخر، للوحات المعلقة على الجدران، وبعد قليل أيقنت أنها كلها لذات الرسام، وبعدها بقليل نحجت فى قراءة التوقيع المكتوب على إحدى اللوحات القريبة. قالت السيدة: «عندما يكون المرء هادئًا فإنه يوجِّه أسئلة حول مدينته. كان هو على العكس، يأتى عندنا فى الريف، وكان يمكث يومين أو ثلاثة أيام، ولكنه لم يكن يطلب معلومات عن المكان هنا». وأضافت قائلة، وهى تبتسم ابتسامة عريضة مثيرة للدهشة: «أحداث كثيرة وقعت فى ذلك المنزل».

وقد بهرنى أنها كانت تتحدث عن تلك الأحداث وكأنها واقعية وأسطورية. بل إنها قالت بالفعل: «مطعم نهر برنتا»، «الزجاج المكسور»، وكأننى لابد أن أعرفهما، وفى الواقع كنت أعرفهما، ولكن لم أتخيل أنه يمكن الإشارة إليهما بالعنوان فقط. قالت السيدة: «كان يخرج فى الصباح الباكر وكان يحمل معه دائمًا الكثير من الكتب. كان يبحث عن مطعم على ضفاف النهر، شريطة ألا تكون به مصابيح النيون. وقد حكى لنا؛ أنه عثر على مطعم غير عادى، ووصفه فى كل جزء منه. ولكننا لم نجد هذا المطعم أبدًا. وأيقن زوجى أنه ربما اخترع هذا المطعم، فقد كان يعرفه منذ زمن، أما أنا فقد عرفته فى وقت متأخر نسبيًا».

Twitter: @ketab_n

نهضتْ من فوق الأريكة، وقالت: «انتظر من فضلك لحظة»، ارتقتْ درجات السلم، وربما كانت الغرف بأعلى مضاءة بالمثل. نهضت أنا أيضًا، كان يروقنى السكون الذى يخيّم على المنزل. تجولتُ قليلاً داخل المكان، وكان يبهرنى الزجاج الموجود داخل المنزل، ثم شاهدتُ مجموعة من البركار داخل تجويف بالجدار لم أكن قد رأيتها من قبل.

قرأت المطبوع عليها من أسماء مدن ألمانية أو إنجليزية، حيث تم صنْعها، ثم تابعت ببصرى إطار اللوحات المصنوع من النحاس، والذى لم يعلوه الصدأ. كنت أفكر فى آخر مرة استخدمت فيها لتثبيتها: فالرجل ينظر من خلالها، ثم يرفع بصره عنها ويحدد بعد ذلك الأداة التى يجب استعمالها، ثم يبدأ فى ضبط المسامير بصورة لا نهاية لها ولا اطمئنان فيها. ثم يُخْرِج بعد ذلك نموذجًا أكثر دقة يمكن التحكم فيه، ويعقب ذلك البقاء الطويل داخل الدرج، والذى حفر على قاعِهِ الشكل نفسه بصورة عكسية، وما بين تصنيع الشىء ووضعه فى مجموعة، فإن كل الوقت الذى يمر هو وقت ميت.

عادت السيدة ووقفت خلفى دون أن أشعر بها. استدرتُ لأعبِّر لها عن إعجابى بمجموعة البركار. لم أكن أتوقع ذلك:

Twitter: @ketab_n

وجـدت إطـارًا من الفضـة تقريبًا أمـام الجاكيت، وبـه صورة. من المستحيـل ألا أخذها. أبعـدتُ الصورة بكامـل يدىّ، وعدت برأسى إلى الوراء، كما يفعـل مرضى طول النظر. كنت آمل أن يبـدو كل شىء طبيعيًا. قالت السيـدة: «ها هو ذا «بوبى». شردتُ ببصـرى بعيدًا عن الصـورة. قالت هى: «هل ترى كيف يقف بين الصخور؟»، أجبتُ: «آه، نعم». أشارت هى إلى الموضع، الذى ربمـا كان للرجل فى الصورة: «عندما كان يأتى عندنا كان يجلس دائمًـا على الأريكـة، وكان يفتح ذراعية علـى مصراعيها ويرفع رأسه إلى أعلى هكذا».

أعدتُ إليها الصورة، وأخذنا نتجـاذب أطراف الحديث. كان يبدو لى أنه يمكننى أن أفسر لها بهدوء، أو ربما كان هذا واحدًا من المواقف التى شعرتُ فيها بالتزام طبيعى وهادئ بترتيب الأشياء. وفجأة قالـت السيدة: «ليوبا بلومنتهال» سيـدة غير عادية. سترى حضرتـك، أن التعـرف إليها سـوف يكون بالنسبة لـك تجربة لا تُنْسَـى؛ فصوتُ هذه المرأة سوف يظل يتردد فى أذنيك. ذات مرة وهى فى السيـارة معه، وفى صحبتهما فتـى صديق لهما تعرضوا لحادثـة. كانت لديهـا خُصْلة كبيـرة من الشعر الأبيضـ قللت من الألم. ثـم أصيبت فى الشبكية، وأصبحت عميـاء تقريبًا بعد ذلك. وقامت بتعليم فاقدى البصر القراءة بطريقة برايل، وربما ما زالت تفعل ذلك».

Twitter: @ketab_n

ومـرة أخرى تحـوّل البطء إلـى حالة من الجمـود. كنت أوَدُّ البقاء فى هـذا المكان لأرى فقط كيف يصبح الضوء بالخارج على البحر والمدينـة رماديًا وأزرق بصورة كبيرة، لدرجة أن زجاج الشرفـة الأسود أخذ يعكس الأنوار والحركـة داخل المنزل. لكن القطار الذى سأستقله بعد قليل، هو الوسيلة الملائمة. قالت السيدة: «هل ترغب فـى أن أصطحبكَ بسيارتى؟»، شكرتها على ذلك كما ينبغـى، ولكن سعدتُ بذلـك، ولا سيما وأننى لم أجـد تاكسيًا على التليفون.

نزلنـا إلى الجـراج، وقمت برفـع الباب المعدنـى إلى أعلى، فشاهدتُ سيـارة قديمة ماركـة «بورجورد» المكشوفـة فى نهاية الجـراج. قالت السيـدة: «كانت هـذه السيارة لزوجـى. ولم يعد يستعملها أحد».

سرنـا عبر شوارع كنت أعـرف بعضها، ولكن مع رؤيتها من السيـارة كنت أشعر بإحساس مختلف عـن الاحساس بها منذ بضع ساعـات مضت. وعندمـا نزلتُ مـن السيارة قالـت السيدة: «فى المرة القادمة نرجو حضورك على الغداء».

Twitter: @ketab_n

كان هناك مكان بجوار نافذة القطار، وكانت تجلس أمامى فتاة كان وجهها حزينًا، كانت تبدو وكأنها توشك على البكاء. أتمنى أن لا يحدث ذلك وأن يكون الحزن الذى يكسو وجهها هو أمر طبيعى، ولكن بعد ذلك نهضت الفتاة لتشاهد الغروب فوق الخليج، مع مغادرتنا للمدينة، وقد حلّ بها الوهن حتى إننى لم أعرف كيف تتحكم فى خطواتها.

وأمام هذه الكآبة، كان علىَّ أن أشغلَ نفسى ببعض الأشياء؛ فعندما جلست مرة أخرى فتحتُ حقيبتى الصغيرة وأخذتُ أرتب ما بداخلها. فى الواقع كنت أتصفح ثلاث أو أربع ورقات بيضاء تمامًا، ولكن المهم أن أظل برأسى منخفضًا لأسفل. كنت أفكر فى الصمت، وكيف أنه قدرة غير عادية. إنه أمر يسير جدًا، يكفى أن تبعث بإشارات توحى بأنك لا تريد أن تتكلم، ولا أحد يمكن أن يرغمك على ذلك. لكن الآن القدرة على اللا كلام، تبدو لى نقطة صمود مطلقة. أغلقتُ الحقيبة ورفعتُ رأسى. قالت لىَ الفتاة: «ماذا تدرس أنت؟». ابتسمت دون أن أرد عليها، وكأننى لم أفهم لغتها. ألحّت الفتاة فى سؤالها.

مكثتُ أستمع للفتاة فقط، وكان يكفى أن أبتسمَ لها من حين لآخر وأقول لها «نعم»، «لا». تحدثتْ الفتاة عن هذه المدينة، وكيف

Twitter: @ketab_n

هربت منها، وتحدثت عن روْعتها وعن عدم القدرة على العيش بها، وتحدثت عن الأماكن والمناظر التى ربما أكون قد رأيتها أو سأراها. لا أدرى كيف وصلت هذه المدينة إلى السينما الأمريكية، وقد كانت هناك دراسة عامة لها. نظرتْ إلى الكوب الورقى الذى كان فى يدها، وعند مرور بائع المشروبات طلبتْ منه أن يضع لها فى هذا الكوب ثلاثة أقداح من القهوة. قالت الفتاة، وهى تتناول القهوة: «من نهر «الأزونزو» حتى هنا نحن جميعًا سلاف، ولكنك لا تستطيع أن تقول ذلك لأهل هذه المدينة، فهم يعتبرون أنفسهم ألمانًا».

قلت فى نفسى: «ربما من الممكن أن أتظاهر بالنزول فى المحطة القادمة». فكرت فى ذلك على مَهَلٍ وتظاهرتُ بمشاركتى لها فى حديثها. انصرفت الفتاة إلى الحديث عن الكتب، وروت لى اثنتين أو ثلاثًا من روايات «فيكتور هيجو». وفى النهاية قالت: «توجد معاناة كبيرة، أليس كذلك؟ وإيمان كبير أيضًا». هى تعرف تقريبًا كل الكتب التى ستقرأها. قالت الفتاة: «ألا ترى أنه يجب قراءة «نيتشه»؟». فقلتُ لها: «آه، بلا شك».

كنتُ ألمس فى كلامها طاقة فطرية يشوبها التوتر، وكنت أتفاعل معها كالمعتاد: كنت أطيل السكوت والتمهل فى الرد عليها.

Twitter: @ketab_n

وقد انتهزتُ الفرصة عندما توقفتْ عن الكلام، على غير المتوقع، فأغمضتُ عينيَّ وتظاهرتُ بالنوم. بقيتُ هكذا وأسفتُ قليلاً على هذا، ولكن كانت حيلة وقتية، فقد كنت فى حاجة إلى الهدوء الخارجى، والداخلى أيضًا لبضع دقائق قليلة. ثم قلتُ فى نفسى: «الآن الأمر يسير على ما يرام، ويمكننى أن أفتح عينيَّ». ولكن كان ذلك آخر شىء فكرتُ فيه.

Twitter: @ketab_n

الفصـل الثالث

وقفتُ بجوار جدار لسفينة حربية فرنسية اسمها «إليه دولرون». كان من الصعب تحديد مواعيد فى الصباح وكنت قد وصلتُ لتوّى مـن محطة القطار إلى الميناء. وقد رأيـت شكلا رماديًا بين ألوان البانـورام المبهـرة المتعامدة علـى الفندق الكبير. ومـع اقترابى رويدًا رويدًا تحول الاختصار، الذى كنت أراه على جانب الجدار مـن AG10 إلى AG10، نظر بعض البحارة المطلّين إلى أسفل، وكان يحدوهم الإحساس بالأهميـة والامتلاك. لم أكن أعرف إذا كان مـن الممكـن الصعود على متن السفينة، سـرتُ عبر رصيف المينـاء إلى أن وجدت مكانًا أجلـس فيه. من هنا كنت أرى السفينة جيـدًا؛ كانـت مرتفعة وقريبة بصـورة غريبة، ثم جـاء فتى وفتاة يحملان المِخَل وعبرا جسرًا كان بمثابة النهاية الطبيعية لطريقهما، وصاحَا بصوت عالٍ للضابط فوق السفينة قائلَيْن: «نحن فرنسيان. إنه لأمر رائع أن نجد سفينة لنا هنا». ابتسم الجميع ثم اختفوا الثلاثة واحدًا تلو الآخر داخل فتحة مربعة فى السفينة.

الآن سـوف يسيرون داخـل الممرات الضيقـة وبين الحوائط الرأسيـة للسفينة، والتى توجد أمام كل مقر بداخلها، وقبل الولوج

Twitter: @ketab_n

داخـل السفينة سوف يشرح لهمـا الدليل معنى صالـة الماكينات. وسـوف يشرح لهمـا أن «إلن دولرون» هى سفينـة معاونة، كما يبـدو من تسليحها المحدود وهيئتها التجارية. وستبدو بعض المقار مثل كابينة قائد السفينة أو كابينة عدّادات الزمن بصورة لا يصدقها عقل صغيـر بالنسبة للزائرين، وأحيانًا تكـون بالفعل كذلك. ويتم التحـرك بداخلها بمـا يتناسب مـع الأثاث. فتح المـلازم البحرى دولاب العدادات كانت متراصة على نفس المستوى ومتوقّفة. قال المـلازم: «يجب شحـن العدادات كل يوم فى نفـس هذا التوقيت، فهى حساسة للغاية. وعندمـا يحدث اشتباك بالمدفعيات نقوم بنقلها مـن هذا المكان ونضعها داخـل كابينة فى وسط السفينة على مرتبة سرير».

ما كان يثير القلق بصورة خاصة هو؛ أن يعرف الفتيان بوضوح موضعهمـا بالنسبـة لترتيب الكبائن، بل إنه سألهـم صراحةً: «أين نحـن؟»، فأشارا على صالـة الماكينات، والتى أثـرت فيهما أكثر مـن أى موضع آخر بالسفينة، حتـى وإن رأيا بداخلها توربينات، وليست عـدادات الزمن ببندولها الذى يتحرك يمينًا ويسارًا، ومن هنا يقومـون بقياس المسافة، هـذا بجانب حديثهم عـن الطوابق، والسلالم والممرات.

Twitter: @ketab_n

أمـا غرفة قيـادة السفينة، فهـى صدمة بالنسبة لهمـا، فلم يكونا يتوقعـان أن تكون بها آلات قليلة ومساحات كبيرة فارغة، سيقول لهما الدليل إن السفينة هى وسيلـة النقل الوحيدة التى تتسم بخاصية التحكـم، بعيدًا عن غرفة المحركات، وسوف يريهما اللوحة خلف قائـد دفّة السفينة، حيث يتـم تسجيل إشارات عـن المسار الحقيقى واتجاهات البوصلة وعدد لفات الدفاعات.

وتلبيـة لطلبهمـا، سيفتح الـدرج وسيخرج منه لوحـات مقارنة بين عدد لفـات الدفاعات وسرعـة السفينة بالعقـدة، وسيقول لهما علـى الفور: «لكن هـذه لوحات متفائلـة». «فى الواقـع يجب أن نضع فى الاعتبار غاطس السفينة، والنباتات العالقة بالجزء السفلى منهـا، وطفو الدفاعات فـوق الموجات العاليـة، ومدى عمق قاع البحر، وكـم التعديلات التى يقوم بها قائد الدفة فـى توجيه السفينة وفقًـا للمسار الصحيح». وربما يرغب أيضًـا فى أن يخبرهما كيف تسجَّـل كلُّ واحدة من هذه الأمور، ولكن الفتيَيْن سيكونان قد شردا وسينظـران حولهما وسوف يريان أن كابينـة القيادة الحديثة يجب أن تكون فيها بجوار درج الإعلام لوحة التحكم الإلكترونية، وأنه تقريبًا أصبحت عادة سيئة وجود عجلة الدفة الخشبية ذات المقابض، كما هو معروف. وسيصف لهما الملازم مدى مرونة الخشب تحت الأيدى فى قيـادة السفينة لساعات، بالمقارنـة لصلابة الحديد. فى البداية، عندما انتهيا من زيارة الجانب الحركى، وهو الجزء السفلى

Twitter: @ketab_n

والمرن للسفينة، قال لهما قائد الدفة: «هذا الجزء يتكلم. ومع إيقاف الماكينات يمكن سماع هذا الصوت». ولكنه ربما يتغاضى عن القول؛ بأن هذا الصوت الكئيب للقاع ولجسم السفينة، وهذه الزفرة الليلية للمواد المصنوعة منها السفينة أمر مرعب.

صندوق البوصلة ومقياس الزوايا، مثل هذه المسميات سيذكرها الملازم، فبعض الألفاظ تجعل المرء يسلك سلوكًا محددًا. ثم إن هذه الألفاظ ستروقه، لأنه ليس لها مرادفات، ويمكن أن تضفى الدقة الفنية على كم كبير من المسميات، مع التخلص من أى عقبة تقف أمامه فى توضيح المسمى. ولكن مع هذين الفتيين سيبذل جهدًا فى المقارنة الدائمة بين الأشياء والتحركات فى البحر وبين الأشياء والتحركات فوق الأرض. سيقول لهما فى الغالب «ماذا» و«هكذا». قد شرح لهما المسبار الفائق لسرعة الصوت، فقال: «سنصبر كثيرًا»؛ ثم أضاف قائلاً: «هكذا نسير فى البحر وكأننا نسير بأقدامنا على القاع».

ما تصور الملازم عن الغرق؟

لم ينزلا بعد من السفينة. إنها ثانى مرة يصل ثلاثتهم إلى جسر النزول، ثم يتحدثون ويعودون مرة أخرى إلى مقدمة السفينة، وكأنه نَسِىَ أن يطلعهما على شىء آخر.

Twitter: @ketab_n

فكرتُ فيما يمكن أن أحسدَ الملازم عليه.

طريقته فـي التركيز علـى الزاوية والارتفـاع، والتعوُّد على الاعتداد بالنفس أمام أى شىء. أو طريقته فى النظر: فهو فى الغالب يلمـح بطرف عينيه، معتاد على النظر بالتوازى. يمكن أن أحسده علـى تصريف النجم، حيث إن النجم يتصرف مثل الاسم. أو على المجـال اللا نهائى والمساحات الشاسعة فى الفجر وعند الغروب، واللحظـات الفريدة التى يتزامن فيها النجم مع الآلة. ولكن تعجبنى أيضًـا نوبات الحراسة، والتنظيم الداخلى، وأصوات الإذاعة أثناء الليل - فأصوات الإذاعة فى الليل شىء مختلف تمامًا عنها بالنهار. وربما تكون هناك أيضًا كتب لـم تكتمل قراءتها: ويفكر المرء فيها أثنـاء عمله، وهو يعرف أنها توجـد هناك، فينتظر حتى نهاية نوْبة الحراسة حتى يواصـل قراءتها. كان الإبحار يمثل لى وجودًا طيبًا للتأمـل والتعامـل معًـا، لبعض الأفـراد مثلما كان فـى الماضى، عندمـا كانوا يضعون شيئًا فى المـاء لقياس السرعة، وعندما كانوا يعرفون من دقـات النبض الوقت الذى كانوا يستغرقونه فى السير من مقدمة السفينة إلى نهايتهـا، كنت أفضّل، من بين الأشخاص، الضابـط المساعد. أعلم أن القائد هـو القائد، لكن الضابط المساعد يصدر الأوامر حتى يتم إحكام القيادة. فهو يتابع ويتعاون مع طاقم السفينـة. ليس نائبًا، بل مـن حيث الرتبة العسكريـة فهو يتساوى

Twitter: @ketab_n

مــع قائد السفينــة، وفى بعض الأحيان كان يفــوق القائد، كان هو المسئــول الحقيقى عن السفينــة، وكان يقوم بــدور المالك للسفينة فى المسائل التجاريــة. كان يبدو لى أن الضابط المساعد هو الذى يكفــل استمرار كل شــىء على ظهر السفينة. ثم بــدأتُ أدركُ؛ بعد ذلك بقليل؛ مدى قيمــة قائد السفينة وبدأتُ أقدِّره. كان يروقنى فى البحرية الاحترام الدقيق والرشيق لقواعد العمل، أو مسألة أن كل هذا الوقــار الميتافيزيقــى للحساب، والوقــوف والتلاحم له هدف واحــد فقط هــو النقل، شىء مهــم ، مهم جدًا، لكــن ليس غاية فى الأهمية.

كان مــاء البحر ينبسط وينغلق باستمــرار، ومن يقف فقط على متن السفينة يعــرف أنه قد مر بالفعل. إن مسألــة المرور البسيطة هــى فى ذاتها علم معقّد. والغــرق ـ وقد خطر على بالى الآن، فى الوقــت الذى كان فيه الفتيان يصافحان الملازم ـ أيضًا يوجد كل ما يتعلق به هنا فى هذا العلم، بما فيه من أخطاء محتملة تثير السخرية. لماذا نبحث عنه بالخارج، مثل قبطــان المسافات الطويلة؟ ولماذا نلقِــى بعيدًا، كمــا فعل هو، بكل مــا يوجد بين المجــاز فى الغرب والجوارب القصيرة، وبكل المتبقِى الذى نكتب به؟

Twitter: @ketab_n

وربما أيضًا لأن جزءًا كبيرًا من مجازنا تنتهى به الحال فى البحر مثل النفايات. فضلاً عن أن ذلك القبطان كانت تواجهه مشكلة كيفية الوقوف على الأرض.

كان علىّ أن أرتب يومى، ولكن فقدت التركيز. ودون أن أدرى سرتُ خلف الشاب والفتاة حتى خارج الميناء. وشيئًا فشيئًا وجدتنى أذهب عند بائع الكتب المعتاد.

قال البائع: «آه، أنت مرة أخرى». سألته إذا كان لديه كتالوج عن السفن. فأجاب: «لا، مستحيل». ثم عاد بعد قليل ومعه الكتاب. بحثتُ فى القسم الفرنسى، بين السفن المعاونة. ها هى ذى هنا: «إلين دولرون»، وتوجد صورة صغيرة لمؤخرة السفينة وصورة للسفينة من الداخل. كانت السفينة تسمَّى فى البداية «مور» وكانت تسمّي قبل ذلك أيضًا «مونشن». لقد كانت سفينة نقل ألمانية سابقة، ثم أَسَرَتها القوات الأمريكية وتنازلوا عنها للفرنسيين. خطرت على ذهنى القشرة المعدنية لجانب السفينة، والتى تأملتها لقرابة نصف ساعة، فقد كانت مصنوعة بصورة تجعلها تبدو متموِّجة أو مقدمتها المستقيمة وكأنها متعامدة على البحر.

وأعتقد على أية حال، أنه قد كتبت بالفرنسية القديمة لـ«أولرون» النصوص الأولى للقانون البحرى؛ والنصوص الأولى أيضًا التى تروى الحياة المخيفة على متن سفن الغرب.

Twitter: @ketab_n

كان الطريق الذى أسير به مرتفعًا وقريبًا من بائع الكتب، وكان هذا الطريق هو العنوان الذى أحمله للشخص الذى أبحث عنه، دخلت متجرًا لبيع الأدوات المنزلية، كانت هناك امرأة عجوز تقف خلف المصطبة، وهى ترتدى كنزة سوداء وذراعاها متشابكين، وكأنها محراب محفور بين الأشياء. قالت لى المرأة أشياء كثيرة باللهجة العامية، فلم أفهم منها إلا القليل، وأرسلتنى إلى المنزل المواجه لها. ارتقيتُ سلالم مدخل كئيب بالٍ. وكان الجواد والتنين المرسومان على الجدار، ما بين الطابق الأرضى والطابق الأول، أشبه بالأطلال. قرعت جرسين. كان الظلام يخيّم على المكان، وعندما سُئلت مَن بالباب، لم يكن من اليسير إعطاء السائل الإحساس بالأمان.

كانوا هنا لا يعرفون شيئًا، فعدت إلى المرأة التى كانت بالمتجر. قالت لى: «حضرتك تريد الآن معلومات أكثر، هو ليس واحدًا من المجانين الذين تم الإفراج عنهم، أليس كذلك؟»، أجبتُ قائلاً: «أعتقد لا». ثم أسهبت فى الحديث عن الأفراد أصحاب الطباع الغريبة؛ فوصفت فتاة كانت تسير بالحى ثم تتوقف لتزيل من الحذاء الطين الذى لم يكن موجودًا بالفعل. ثم تحدثت عن الصابون وعن المذيبات، ولم أفلح فى الرد عليها أو فى إيقافها. كانت للمرأة عينان واسعتان وكأنهما مرسومتان خلف النظارة، وكانت تنظف

Twitter: @ketab_n

المصطبة بإصبعها الخنصر. وكانت المصطبة تبدو لى نظيفة. ثم مدت جذعها وقالت لى فى صوت خافت: «حاولْ أن تسأل عنه فى المطعم الموجود بالميدان، ولكن لا تخبر أحدًا أننى أرسلتك. فهناك أشخاص أشرار».

ألقيتُ نظرة على المطعم، غير أننى لم أرغب فى الدخول. وفضلتُ على العكس، أن أذهب إلى البار الموجود فى نهاية الطريق المرتفع. وسرتُ حول المنزل على هيئة حرف الـ U، حتى لا أمر أمام متجر المرأة. كان هناك رقم داخل دليل التليفون، ولكن فى المرة السابقة عندما اتصلت به لم يرد علىّ أحد. واعتقدت أنه لم يعد يوجد منزل لهذا الرقم. أما الآن فقد ردت علىّ امرأة قائلة: «اسمع حضرتك، لقد وصلت إلىّ رسائل بريدية منذ فترة غير بعيدة تحمل اسم هذا السيد، وكان يأتى ليأخذها، وهكذا حدث بيننا التعارف». قلت لها «حسنًا». فأجابت قائلة: «ربما يوجد مطعم يمكنك أن تعثر فيه عليه». اتصلتُ بالمطعم، وتحدثتُ مع اثنين أو ثلاثة أشخاص مختلفين، وقال لى الأخير: «نعم، لقد كان هنا بالأمس أيضًا». وأعطانى عنوان الشارع الذى يسكن به، وأعطتنى هيئة التليفونات باقى المعلومات. وأخيرًا أجريتُ الاتصال به. كان هناك فى الجانب الآخر صوت مهتز يقول: «تليفون». وعندما جاء الرد هكذا، لم أعرف إذا ما كان

Twitter: @ketab_n

علـىّ أن أنتظر بجوار الهاتف أم كان ذلـك صوت الشخص الذى أريـد التحدث إليه، وعندئذ أستطيع التكلـم. على أية حال كان هو الشخصـ المطلوب، وشرحتُ له ماذا أريد، فقال: «رائع». وأنه يمكننى أن أذهب إليه على الفور.

فتح الباب وابتسم. وقال: «إيـه ... كيف حضرت؟»، وظل لحظـة هكذا وهو ينظر إلـىّ فى شىء من الرضـا، ومع ذلك كان وجـودى أمامه وكأنه أمر غير حقيقى. ثـم أشار إلى رفٍّ بمدخل الشقـة، وقال: «هل ترى هـذا الشمعدان وهذا الوعـاء؟ إنهما من منزل «بزلن». رأيتهما، وللحظة خشيت ألاّ أضعهما فى مكانهما. «أتعـرف، بعـد أن رحل من هنـا كتب لـى ... «أرسل لى ذلك الصندوق ... أو «إن فلانًا ربما لا تزال لديه إحدى لوحاتى، هل يمكنك أن تعيدهـا إلىّ؟»... لقد أرسلت له أشيـاء كثيرة، وأشياء أخرى كثيرة لم يتم العثور عليها».

دخلنـا غرفة مضيئة وصغيـرة، ويبدو كل شىء بهـا وكأنه لم يمسـ: حتى لا يغيّـر الترتيب الـذى قامت به الخادمـة التى تعمل بالساعة. كانت لديه طريقة ناعمة فى تغيير الموضوع الذى نتحدث فيه، عندما يريد: كان يبتسم ويدخّن فى سكون، وذقنه إلى أعلى، ثـم يقول شيئًا جديدًا، يقول ذلك وهو يذكر: « ... » اكتب لى عن

Twitter: @ketab_n

الأغبيـاء، فعندما يموتون جميعًا سـوف أعود إلى «تريستة». ولا يمكن القول هكذا بأننا كنـا نتحدث بالفعل، ولكن كان هناك، رغم ذلك، توافق، حتى وإن كان ينتمى لنوع ما من المناقشات التى لا ندرى متى حدثت. وبعد قليل من الوقت قال: «عدتُ إلى المنزل، وقالت لى أمى»: «بوبى» ينتظرك بغرفتك على السرير». وبالفعل كان فـوق السريـر، كان ينتظرنـى ويقـرأ... «الآن أنا وأنت سنذهـب لتناول العشاء معًا بالخارج ...». وبالميدان كان الناس يقولون: «هذا الشـاب المحدَوْدِب قد جَن بما يحمله من كتب كثيرة تحت إبطه ...». قلت له: «لكن هل كان بالفعل محدوْدِبًا؟»

نظـر إلىّ وهـو لا يزال يدخن، ثـم أجاب قائـلاً: «... نعم، محـدودب جدًا ... ثم أجـرى تحليلا نفسيًا مع أحـد الأطباء هنا، لكن لا أدرى فيمَ أفاده ...».

كان يستنـد على المائدة وذراعـاه متشابكين، وكان يوضح كل شىء بإخراجه مـن السكون وإغراقه مرة أخرى فى السكون... «هـل أنت فى حاجة إلى النقـود؟» ... كان كريمًـا جدًا ... فقد ورث مـالاً كثيرًا عن عمه، يصل إلى نحـو ثمانين ألف ليرة ... كان يفتـح حافظـة نقوده ويقـول: «ها هى ذا مائة ليـرة لك» ... كانت ثروة.

Twitter: @ketab_n

وفى لحظات التوقف الطويلة، كان ينظر إلىّ وكأنه يتكلم، ولم يكن من السهل التفكير فى ردٍّ. كانت كلماته تبدو سريعة: «منذ أربعين عامًا ألقيت عبارة ونحن نجلس فى مقهى، فقال هو: «آه، ما أجملها...! هل من الممكن أن آخذ هذه العبارة لأنى أريد أن أضعها فى روايتى؟»

تركتُ قدرًا معتدلا من الوقت يمر حتى يمكننى أن أتوافق مع إيقاع الحديث. ثم قلت له : «ما هذه العبارة؟»

سكتُّ كالعادة، ونظر إلىّ نظرته الثاقبة المعتادة وهو يبتسم. فى النهاية قال فجأةً: «كان قد قال: «هل تعرف نفسك؟ فأجبت أنا «نعم»، ظاهريًا... » فقال هو: «ما أجملها! هل تعطِها لى؟»... ثم نظرتُ بعد ذلك فى الأعمال التى كتبها، ولكنى لم أجد هذه العبارة».

والآن، وحينما حانت لحظة التحدث، نهض من مكانه وذهب إلى هناك. كان قصير القامة ومستدير الهيئة تقريبًا. عاد ومعه كتاب ضخم عن الفن، فتحه على المائدة وتصفّح الكتاب من جانبى وهو يقف على قدميه بجوارى. نظرتُ إلى الصفحة دون أن أقول شيئًا. بعد قليل وضع إصبعه على صورة صغيرة، وقال: «أنا مُخلّد هنا». نظرتُ بدقة: كان بالصورة صبى أشقر، أزرق العينين،

Twitter: @ketab_n

يطـل من شرفـة غرفة نومه، وقد بـدا الليل علـى هامش اللوحة. جعلنى أنظر إليها وهو يبتسم ويقول ببطء: «الملاك».

جلس من جديد وبقينـا صامتيْن، ومن حين لآخر كنا ننظر إلى بعضنـا بعضًا. أخذت أفكر فى مسألة العبارة. وفى النهاية قلت له: «إذن عندما كان هنا كان يفكر فى رواية من رواياته؟».

وبعـد وقـت طويـل قـال: «... إيه، نعـم كان يفكـر، كان يفكر... فقد كانت الرواية هى حياته ...».

الآن أستغل هذه المساحة الزمنية لصالحى، لأتذكر أين سمعتُ هـذه العبارة من قبل. حتى فى أحـد كتبه كان هناك شىء واضح، مثـل: حتى عصر «جوتة» كانت الرواية تستوعب السيرة الذاتية، ومن «ريلك» ومن بعده كانت السيرة الذاتية تتعارض مع الرواية. لكن الأمر ليس كذلك. لا شىء، لا يروقنى ذلك.

كان الدور علىّ مـرة أخرى، أسهبت كثيرًا فى الحديث لأقول له: «بالتأكيد لكن رحيله من هذه المدينة بهذه الطريقة القاسية...».

«لا أدرى ... كان هنـاك ارتباط مع عائلة «سابا» ... لكن أنا هنا تائه ...؟».

Twitter: @ketab_n

لم أُضِع الوقت وسألته على الفور: «لماذا، وأىُّ ارتباط؟»

كان يدخن ويبتسم ويدخن. ومرت بالفعل عدة دقائق. ثم قال أخيرًا: «اسمع، هل تقبل بعض التذكارات؟». تحجّرت فى مكانى، ونهض هو وفتح درجًا، وأخرج منه كارتيْن مصوّرَيْن. وأدار الكارتيْن فجأة قائلاً: إنهما بوابتان، إحداهما بها نقش بارز والأخرى بها نقش غائر. وقال: لقد أمرت أنا بتصنيع هاتين البوابتين. هنا كل شىء يختفى. هدأت، وحكيتُ له عن الردهات ذات الرسوم الجدارية، والتى أحيانًا أدخلها. مكثنا صامتين لفترة وجيزة. أما الكارتان فقد ظللت أنظر إليهما حتى انطبعا فى ذهنى.

قال هو: «إيه، إيه... «بوبى». سألته إذا كان «بوبى» هذا هو اسم مختصر شائع هنا. لم يرد على الفور؛ وقال بعد بُرْهة: «بوبى صولو». وبعد قليل قال: «المغنى»، أتعرف».

قلت: «نعم، بالتأكيد».

وتضخّم وجهه وهو يبتسم ابتسامة أكثر إبهامًا: «ربما رأيت حضرتك والدة «بوبى صولو»... كانت هكذا جميلة لدرجة كانت تجعل الساعات تقف».

Twitter: @ketab_n

كانـت الساعـة تقترب من الواحـدة، فنزلتُ مـرة أخرى نحو وسـط المدينة، وكانت تصاحبنـى أمطار قليلـة ورطوبة شديدة. كان يعترينى الخـوف بسبب ما تبقّى من اليـوم، أو بسبب فترات التوقـف، أو بسبـب التنقلات التى لم تكن ترتبـط بمرور الوقت، على عكس الأشخاص الذين كان عددهم يقل دائمًا فوق الأرصفة، وكانـوا يتجهـون بسرعة نحو منازلهم. وخطـر علىٰ ذهنى دعوة السيـدة صاحبة البـركار. حاولتُ الاتصال بهـا وردت هى قائلة: «تفضل علـى الفور، فإنى أنتظـرك». بقيتُ لحظـة داخل كابينة التليفـون، وأنا أسمع صوت المطر الـذى أخذ يضرب بشدة سقف الكابينـة المعدنى. ساد المـكان بعض الهدوء، ربمـا بسبب البقاء لمدة طويلة داخل المطاعم والمقاهى، نظرًا لهطول المطر. كانت هذه المقاهى، بصورة خاصة، تذكّرنى بشبكة صيد المحار، وهى شىء لا أعرف أبدًا كيف أصنعه.

بحثـتُ عن حلاقٍ، وحاولتُ أيضًـا أن أغتسل قدر المستطاع، ولكن عندما دخلت عند الحلاق كنت مبتلاً للغاية. كان الحلاق من الجَنـوب، وكانت بشرته داكنة، وبعد أن شرع فى حلاقة لحيتى، قال لى: «لحيتك من النوع الثالث».

سألته ما الفرق؟ فتوقف عن الحلاقة وأخذ يتحدث وهو ينظر إلى المرآة قائـلاً: «النوع الثالث يقصد به اللحـى الجافة والجامدة. أم

Twitter: @ketab_n

النـوع الثانى فيقصد به اللحى المتماسكة لأصحاب الوجوه البدينة. أما النوع الأول فيقصـد به اللحى الناعمة والنادرة الشعر». سألته إذا كان هو الذى يقسّم اللحى بهذه الطريقة، أم أن الأمر يقوم على أساس علمـى، ولكن لم أكترث بالإجابة، فقد كنت أفكر فى قدرته على تكرار هذا الموضوع لكل زبون لا يعرفه، ولا يجد موضوعًا للحديث فيـه معه؛ كنت أفكر فى الحديث من أجل إسعاد الآخرين، وفـى الحديث كحرفة. أضاف الحلاق قائلاً: «كل فرد له لحيته». لكـن بالنسبة لذقنـى، يبدو أن مـن الأفضل استعمـال الموس ذى الشفـرة الحادة، الذى يتركه الآن علـى ورقة التواليت التى ينظفه بها مع رغوة وفيرة من الصابون ورقائق الورق السوداء.

فـى أثناء الحلاقة، وهـى اللحظة التى يكون المـرء فيها صامتًا تمامًا ومنتبهًا لريقه الذى يبتلعه، فكرتُ مرة أخرى فى «الملاك»، وتذكـرتُ مـن قال عبـارة «الرواية هـى حياته». فقـد قالت هذه العبارة «كاترين هيبورن» لـ «مونتجمرى كليفت»، فى فيلم «فجأة فـى الصيف الماضـى». وكانت تردد هـذه السلسلة مـن الكلمات المرتبـة، وهما فـى حديقة موحشـة: الحياة هى قصيـدة الشاعر، وقصيـدة الشاعر هى حياته. لكن «سبستيـان» فى كراسته لم يكن قد كتـب أى قصيدة شعرية. وبينما أنا غارق فى أفكارى، قال لىَ الحلاق: «يجب على حضرتك أن لا تتحرك».

Twitter: @ketab_n

بـدأتُ أنتبه للطريق وأنا داخـل التاكسى، حتى أفهم كيف يمكن أن أرى المدينـة من البحر، وأنا داخل المنزل الذى أتجه إليه مرة أخرى، وما إن دخلت، اقتربت من زجاج الشرفة لأرصد الطريق مـرة ثانية من هنا. ابتسمتْ السيدة قائلة: «لقد أمرت بإعداد أطباق سريعة جدًا». فرددت عليهـا ببعض عبارات المجاملة، وقلت لها إن الأمور تسير على خير ما يرام على أية حال.

وفـى أثناء الغداء، حكيت لها عـن فترة الصباح، وعن لقاءاتى المختلفة، وعن بعض الوجوه التى قابلتها، وبعض العبارات التى أثـرت فـىّ. تحدثتُ دون أن أطلـب منها تفسيـرات أو تأكيدات، بيد أنهـا كانت تعطى تعليقًا خاصًا ودقيقًـا عن كل شخص. وكانت تنظـر إلىّ بين الحيـن والآخر من خلال نظـارة السلحفاة المربعة ذات الضلعيـن البارزيـن. قالت السيـدة: «ألم تفكر فـى الحديث مـع «جرتـى؟»»، أجبت بأننى قـد فكرتُ فى ذلك، ولكـن لم أكن أعـرف كيف أعثر عليها. قالت هـى: «إنها تسكن هنا بالقرب منا. إذا أردت يمكننـى أن أتصل أنا بهـا»، وأضافت، وهى تنظر إلىّ بنظـرة غامضة: «حضرتك تعلم مَن هـى «جرتى»، أليس كذلك؟ . . . . . إنها بطلة شعر «مونتالى». قلت لها إننى أعرف «كرنفال جرتى». فابتسمت قائلة: «سترى أى نوع من البشر هى».

Twitter: @ketab_n

وبعد فترة مـن الزمن، حضرت خادمة عجوز ترتبط بالمنزل بصـورة تجعلها تقيّـم الضيوف، حتـى من طريقـة جلوسهم على الفوتيهـات. وضعت الخادمة الأقـداح الخاصة بالقهوة فوق مائدة صغيـرة ومنخفضـة مـن الكريستـال، كانت توجد فـي ركن من الصالون.

قالت السيـدة: «انتظر، سأحاول الاتصـال بها». وبينما كانت تغادر الصالـون استدارت قائلة: «هل حضرتـك فى كل الأحوال مستعـد لرؤية «جرتى» اليـوم أيضًا؟»، قلت: «نعـم، بالتأكيد». وفـي الحقيقة لـم أعرف إذا كنت أرغب فى ذلـك أم لا. ربما كان ذلـك بسبب المساحات الممتدة نيتجة للإضـاءة أو السكون، وكأن فى جزء مـن المنزل، مركزًا لإشاعة البـطء والهدوء اللذين ظلا ينتشران رويدًا رويدًا وكأنهما هالة من النور. عادت وهى مبتهجة وقالـت: «جرتـى» ستنتظرك بعـد عشرين دقيقة. هـل حضرتك مسرور؟. أجبت: «نعم». وقـد دلتنى هى على الطريق والسلالم والبوابـة والإنتركـم والطابق؛ وفـي الحقيقـة، كان منزلها قريبًا للغايـة. واصلنا الحديث معًا وكنا نختار ضمنيًا موضوعات قصيرة ومتفرقـة، يمكن أن نقطع الحديث فيها عند أى نقطة، وفى اللحظة التى سيكون علىّ أن أغادر المنزل. قالت هى فى مرة واحدة فقط، وهـي غارقة فى التفكير: «ربما كان من الصعب جدًا التغير دائمًا،

Twitter: @ketab_n

كما كان يفعل هو؛ أعنى إعادة كل شىء من جديد. أليس كذلك؟».
أجبتُ قائلاً: «نعم، أعتقد ذلك». ولبُرْهة فكرتُ ليس فى تسامح الماضى، ولكن فى التسليم بأننا كنا فى ظروف مختلفة؛ وفكرت أيضًا فى الاهتمام بالاستمرار؛ استمرار الذات والأشياء والعلاقات المُعدلة والمعدّلة، ولكن بصورة غير محسوسة وتصاعدية. وفكرت، كيف كان يصدر ذلك القبطان أوامره وهو فى قُمْرته يحاول إخراج ما بها من أشياء. وقلت فى نفسى: «ليس من السهل ذلك مع وجود تلك الأشياء، فهى موجودة بصورة لا يمكن إزالتها. ولكن من اليسير التخلص منها، فهى فظيعة ومعرّضة للتلف».

كانت السيدة تقف منذ فترة، ولكن لم أنتبه تقريبًا لذلك، وقالت: «لقد تأخرت والأشخاص العجائز هم قلقون، ولا ينبغى أن نجعلهم ينتظرون». ابتسمتُ وقلتُ لها: «نعم، بالتأكيد»، وبدأت أسرع التفكير.

نزلتُ الطريق جريًا تحت المطر، كنت أقفز من هنا ومن هناك حتى أتجنب الأوحال الكبيرة. وكنت أضغط بيدى على المعطف الواقى من المطر حتى لا يسقط شىء من جيوبه. واستدرتُ جهة اليمين ثم استدرت يمينًا مرة أخرى، وها هى البوابة، وهذه هى السلالم، وقرأت الأسماء المكتوبة على الإنتركم وأنا ألهث. وضغطتُ الجرس عند اسم «جرتى. ت». ومع فتح البوابة دون رد يَشْعُرُ المرء بعدم الود.

Twitter: @ketab_n

كانت السيدة تقف على باب الشقة، كانت قصيرة جدًا وذات شعر أصفر طويل. قالت لى: «حضرتك مبتل جدًا. تفضّل بالدخول».

علقت المعطف الواقى من المطر، وأسفت عندما رأيت قطرات الماء تتساقط منه وتنزل على أرضية الشقة.

سرتُ خلف السيدة داخل رواق به دولابان كبيران، واجهتهما من شيش الحصير، ومطليان باللون الأبيض. مررنا أمام واجهة زجاجية مُضاءة إلى أن وصلنا إلى صالون مظلم، وكان الظلام هكذا حالكًا، لدرجة أنه كان من الصعب تمييز الأشياء، ودخلنا مكانًا تحيطه الجدران. جلسنا على مقاعد صغيرة فى وسط الغرفة، وكنا متجاورين كما هي الحال فى السينما؛ وكنا ننظر إلى نافذة على هيئة باب، ويوجد بجانبها نيش، حيث توضع فيه عادة الأشياء حتى يمر من خلالها الضوء الخارجى، وهذا النيش خاوٍ على عروشه الآن.

وقد نجحت فى بعض اللحظات فى أن أرى وجهها بصعوبة من الجانب. كانت تضع قليلا من المكياج الأخضر الخفيف حول عينيها، وأحمر شفاه متوهج على شفتيها. كان حاجباها مخطّطين بالقلم الرصاص على هيئة نصف دائرة بصورة متقنة، مثل مهرج

Twitter: @ketab_n

هـادئ، وإن كانت هى لا تبتسم أبدًا، ولكنهـا كانت ببساطة لطيفة ومندهشة. قالت: «عظيـم . . . بازلن». قالت ذلك مرتين. وبعد ذلك قالت ببطء: «كان شريرًا».

رفعـتُ يدىّ، وكأننـى أمام شىء فائق للحـد؛ فأشارت هى فى اعتدال، بأننى يمكننى أن أتصور ما أشاء. ثم قالت بعد ذلك: «كان يعقّـد المعيشة للآخريـن». (كنت) أود أن آخـذ مزيدًا من الوقت. سألتها: «ماذا يعنى «كان يعقّد؟». تنهّدت بصورة تكاد تُسمع قائلة: «توحيـد أو تفريق الأشخاص. كان هذا هـو شاغله الأعظم عندما كان يعيش هنا . . . كان يحب فتاة حبًا أفلاطونيًا منذ أيام المدرسة. ثـم أحبَّ أخـرى بعد ذلـك. وكان يريـد أن يعطى الفتـاة الأولى لزوجـى. . . وفـى النهاية حـاول أن يقنعنى بضـرورة أن أحبَّ شخصًا من جنوة. ها هو معنى «كان يعقّد المعيشة للآخرين».

بقيـتُ صامتًا، وغرقتُ فى التفكير فى القـدرة على التأثر الذى يعـد شيئًـا ضروريًا لأمـور من هذا النـوع، وفـى الانبهار وفى استعدادنـا لأن نترك أنفسنـا للانبهار. وأخبرتهـا بذلك. فأجابت قائلة: «انبهار؟ لقد كان لديـه فقط ذكاء وقوة غامضة غير مرئية، وربمـا . . . ولكننى كنت حصنًا منيعًا بالنسبـة له. وبالفعل جعلنى أفهم أننى لست جميلة الساقين فحسب، بل إننى على قدر من الذكاء.

Twitter: @ketab_n

كنا نقضى ليالىَ كاملة فـى تجاذب أطراف الحديث. وفى الصباح كنـت أرتب وألخّص ما تحدثنا فيه. كان أشبه بمحرك الدُمى، فهو إنسان يستطيع أن يحقق أهدافه فقط من خلال الآخرين، لأنه كان عاجـزًا». استدارت ونظـرت إلىّ بدقة شديدة قائلـة: «هل فهمتَ حضرتك عند هذا الحد؟».

أجبـتُ قائلاً: «نعـم، أعتقد ذلـك». وفى الواقع كنـت مندهشًا بشـدة، ولم أعرف كيف أرد، ربما بسبب قسوة التأكيدات أو لأنها أطلقتها فى شىء من اللا مبالاة المطلقة والهادئة بل والساخرة. وقد شعرتْ هـى بذلك، فأردفت قائلة: «هل حضرتك متأكد من أنك قد فهمـت حتى هذا الحد؟» فقلت لها مرة أخرى: «نعم، نعم»، عندئذ هزت رأسهـا قليلاً مشيرة إلى استعدادها مواصلة الحديث، فقالت: «لقـد رسم لى صورة صديقه المقيـم فى جنوة، لدرجة جعلتنى فى النهاية أعجب به أكثر من زوجى».

«آه، إذن الآخـر كان يعجبـك أكثـر؟»، قلـت لهـا ذلك دون تفكير، وداهمنى الضحك، وحاولـت أن أصحح الوضع بشىء له معنى قائلاً: «كنت أريد أن أقول إنك أيضًا لم تكونى حصنًا منيعًا». فانتفضـت قائلة: «لا، ليست هنـاك علاقة بين هذا وذاك، فقد كنت جذابـة، وفتى جنوة كان بالفعل وسيمًا. كان يعجبنى وكانت حوله

Twitter: @ketab_n

هالــة من الأشياء الأخرى . . . على أية حال، فقد أقنعنى هو وأقنع زوجــى. وأصبح عندى الاستعداد للذهاب، وبدء هذه العلاقة غير المشروعة، واصطحبنى زوجى بسيارته حتى جنوة، وفى اللحظة الأخيرة فررت هاربة».

الآن أبدأ فى وصف ما بالغرفة من أشياء. كانت هناك آلة البيانو على الجانب، وتقريبًا فى ركن مــن أركان الغرفة، وكانت توجد مكتبات منخفضــة قاتمة اللون، على الجــدران الأخرى، ويوجد فوقها بعضــ السيراميك. وكنت أعتقد أنها تــدور أيضًا من خلفنا. وكان يتسرب من الزجاج لون رمادى يدعو للنوم، فقلت لها: «هل يمكن أن نضىء المصبــاح؟». فنهضت ببطء وقالت: «يمكننى أن أحاول». وهكذا رأيت باقى أجزاء الغرفة، مرتبة وقاتمة وقديمة، كما تقدم الألوان من الداخل.

جلستُ مرة أخرى، وسألتها؛ إذا كانت رأته بعد واقعة الزواج. «نعم، بعد الحرب . . . ومع الكلام يحدث التكرار . . . هل تعرف كيف يكون الشخص الذى يعانى الالتهاب فى المفاصل؟».

أشرتُ لها بالنفى، فأخذت إحدى يديها وثنتها برفقٍ نحو الخلف قائلــة: «إن العظــام تلتــوِى أحيانًا ثم تثبــت أحيانًــا، وهكذا كانت

Twitter: @ketab_n

كلماتــه، أى لم يعد تلقائيًا بعد، وكانت كلماته سابقة الإعداد، ومن ثَمَّ أصبح أقل ذكاءً».

فقلــت لها: «هل من المحتمل أن يكون قد تغيّر أو حدث له شيء ما؟» لم ترد على الفور، وأمعنت التفكير ثم قالت: «ولكنه كان دائم الفشل». كنت فى حاجة لوقــت كافٍ يسمح لى بمواصلة الحديث، وفــى نفس الوقت يجعلنــى أتفرغ لكل جزئية ممــا أسمعه، والذى كانت تقوله بدقة ورقة تجعلان المرء يتجمّد مكانه. أو ربما أستطيع أن أرى ما إذا كانت هناك احتمالات أخف حدة أو مثيرة للجدل فى نفس هذه العبارة. قلت لها: «ربما فى البداية وحتى لحظة معينة من حياته كان يتوقع شيئًا، والذى، بعد ذلك، لم . . .». قاطعتنى قائلة فى هدوء: «لا، لم يكن يتوقع. فى البداية كان يعيش، كان حيًا من الداخل. ثم . . . اسمع، هذا يحدث للجميع، فى لحظة معينة، وكل ما فى الأمر أنه هرِم مبكرًا».

فاليوم أشياء كثيرة تبدو لى بلا فائدة، بينما كان الأمر غير ذلك فى الماضى. وكذلك أشياء صغيــرة: فعلى سبيل المثال؛ أنا أحتاج لغطــاء أضعه على المقعد الذى تجلس عليــه. هل يستحق الأمر أن أشترى هذا الغطاء؟. . . ربما حدث كل هذا له فى وقت مبكر جدًا، لأنه هَرِم مبكرًا، لأنــه كان ذكيًا للغاية. لقد فهم من تلقاء ذاته. . .

Twitter: @ketab_n

أن كل شـــيء لا يعنى شيئًا، وأيقن أنه فى النهاية لن يترك أى آثر. لا شـــيء. فبالنسبـــة للكتابة لم يكتـــب شيئًا. آه نعم، أنـــا لدىّ ثلاثة كتيبـــات. لا تفيد فـــى شيء، ولو كانت قد نُشِـــرَت عندما كان على قيد الحياة، لما رآه أحد يسير بالطريق، ولما خرج مرة أخرى من منزلـــه. والشيء الوحيد المتبقى منه هـــو، أصدقاؤه الذين أحبوه، وما زال يعيش بداخلهم كما يعيش بداخلى».

سادت فترة طويلة من الصمت، ثـــم قالت بنفس النبرة السابقة: «لم أسألك إذا كنت تريد قدحًا من القهوة». ثم قامت دون أن تنتظر الرد، وسرتُ خلفها نحو المطبخ.

فتحـــت السيدة دولابًا بأعلى، وأخرجت منـــه إبريقًا صغيرًا من النحاس له مقبض طويل، ووضعت بداخله ملعقة من البن وأخرى من السكر ثم بعضًا مـــن الماء. كانت فى كل حركة لها تنجز شيئًا، حتى عندمـــا وضعت إبريق القهـــوة على الموقـــد، كانت منضبطة ومتوانية ربما للالتقاء غير المحتمل لجسدين فى هذه المساحة.

كان المصبح أكثر إضاءة، وكان الجزء الأخير فيه أشبه ببلكونة صغيـــرة مغلقة مـــن كل جوانبها بالزجاج. أخـــذتْ تبحث عن عود ثقـــاب ثم توقفـــت، وكأن الأمور لا تسير على مـــا يرام، ونظرت إلىّ قائلة: «سأقول لك أشياء مختلفة عما سيقوله لك الآخرون، ولا

Twitter: @ketab_n

يجـب عليك أن تنسى أننى كنت أعيش داخل كل هذه الأحداث، أما الآخرون فكانوا خارجها، كانوا أشبه بالمتفرجين». أطبقتُ شفتىّ دون أن أرد بكلمة واحدة.

أشعلت السيدة الغاز لآلة عتيقة ذات صنابير فوق مسند الدرج، وأحاطـت النار بالإبريـق بصورة كانت تبدو لـى مبالغة. وقالت السيـدة: «اليوم، وبينما كنـت أنتظر قدومك، فعلـت شيئًا ما كان يجـب أن أفعله، فقد تناولتُ كأسًـا من الكونياك. فى الماضى كنت عاشقـة كبيرة للكونياك، ثم امتنعت عـن تناوله... والآن أتناول بعض الأدوية التى لا تتناسب مع الكونياك».

فقلتُ لها: «هل أنت قلقة من أجل هذا؟».

فأجابت قائلة: «أوه، لا».

وضعـت السيدة الإبريق جانبًـا استعدادًا لصـب القهوة. كانت تخرج مع القهوة فقاعات كثيفة بنيّة اللون. كانت تحمل هى الإبريق من مقبضه ثم تركته على الفور، فظل الإبريق مائلاً فوق الموقد، وكأنه سفينـة أضرمت فيها النار، فأخذت خرقة مُعَلّقة على الجدار وقوّمت الإبريق.

ذهبت السيدة مرة أخرى نحو الدولاب وأخذت صينية وقدحين ووضعتهـم داخل حوض المطبـخ وغسلتهم. وكنـت أرتكن على

Twitter: @ketab_n

الثلاجة ويداى داخل جيبى. كنت أشاهد المطبخ، كان هناك شىء أشبه بقطعة أثاث صغيرة مفتوحة، وأربع أو خمس سلال معلقة بأعلى، من خلال هيكل من المعدن والبلاستيك، كما هى الحال فى محلات الفاكهة. وكانت كل سلة مزينة بشرائط من الورق الملون وبشرائط أخرى على هيئة دائرة مثل التى يُزَيّن بها البيض فى عيد الفصح. لمستها؛ وسألت السيدة: «ما هذه الربطات؟». فاستدارت، وهى تبتسم وتنظر إلى أسفل: «أوه، إنه الجانب المتهوِّر فى حياتى». وعلى الرف الأعلى، كان يوجد ما بين معلبات الطماطم والبازلاء، برطمان خاص بأكل القط، وقالت السيدة: «أنا مريضة بالنقد الذاتى، إنه مرض يشل الحركة».

ثم جففت الصينية ووضعت فوقها الإبريق وقدحى القهوة. قلت لها: «دعينى أحملها عنك». مررنا مرة أخرى بالرواق، وكان الضوء النيون ينير بعض الفازات الزجاجية. جلسنا مثلما كنا من قبل، وانتظرتُ فى سكون حتى تضع القهوة على المائدة. كنت أرى من خلال النافذة الطويلة سحبًا داكنة بالخارج.

تنهدت السيدة برفقٍ قائلة: «قلت لك إنه كان شريرًا، ولكن لم يكن ذلك بمحض إرادته... من الصعب أن تستطيع فهم ذلك. فقد نمت بداخله نزعة استغلال الآخرين، ولكنه لم يكن مدركًا لذلك. وعندما أصبح مدركًا، لم تعد لديه هذه النزعة».

Twitter: @ketab_n

نهضتُ من مكانى، وسرت بضع خطوات بصورة تلقائية متبعًا الرسومات التى كانت على البساط، بدأت هى فى صبِّ القهوة فى القدحين وهى تمسك الإبريق بطريقة لا تجعل زبد القهوة من أعلى أو الرواسب من أسفل تقع خارج القدح.

سألتها: «ماذا تعنين باستغلال الآخرين؟».

لـم ترد حتى تفرَغَ من ملء القدحين. ثـم وضعت الإبريق على الصينيـة، واستدارت فى تمهُّلٍ وقالـت: «حضرتك من الأشخاص الذيـن يحتاجون إلى أمثلة». قالت ذلـك وكأن الأمثلة عبء ثقيل لا يحتمل؛ «كان يستطيع أن يتكلم وأن يقود، حتى وإن كانت كلمة يقود ليست بالفعـل هى الكلمة الصحيحة. كان يستطيـع أن يفعل ذلك مع «إسففو»، ومع «جوتى» أو مع «بولافيو». وربما لم يكن «إسففو» يفهمه، لأنه لم يكن ينجح فى ذلك؛ وكان برجوازيًا طيبًا ليس إلاّ.

ومع ذلك كان يشد مـن أزره ويحثه ويوضح له أن كل ما كان يكتبـه له معنى. ولكنه نجـح فى بث الرعب فى قلـب أمى، بنفس الطريقة فقد كان يذهـب دائمًا عند والدى فى «جراتس». وحاول أو يقنع أمى بأنها تستطيع أن تسير فى الظلام، وأمى لم تدخل أبدًا غرفة مطفأة الإضاءة. كما أقنع الفتاة التى قدمها بعد ذلك لزوجى، بالحصـول على الليسانس، بل وكتـب لها البحث. انظر، لقد كتب البحث لها، ولكنه لم يكتب أبدًا بحثه هو. فقد كان يعيِّش الآخرين».

Twitter: @ketab_n

قلت: «ربما كان ذلك مصدر سعادته».

«سعيد ؟ لا ... إنه ... كان يتدرب».

كان هناك تباين فى بعض أجزاء الغرفة، أو كان لون السحب الرمادى هكذا متلاحمًا، لدرجة أنه كان من المستحيل تخيُّل أى شكل بداخل الحجرة. تناولنا القهوة التى كان لها مذاق العرقسوس، واحتسيتها وأنا مطبق الشفتين والأسنان حتى لا يمر تفل القهوة الذى يشبه حبّات الرمل إلى داخل فمى.

قالت السيدة: «إنه أمر غريب، فذاك الجيل لم يكن على قدر كبير من الرجولة. فقد كانت لديهم مشاكل، وكانوا يتحدثون عنها كثيرًا. كان هناك التحليل النفسى، وكان الجميع يهتمون جيدًا بأنفسهم، وكانوا يدرسون أنفسهم ويدرسون الآخرين وكانوا يوضحون كثيرًا. وربما كنا نتحدث كثيرًا جدًا عن هذه الأشياء، وعلى أية حال، فإن ذلك غير مُجدٍ تمامًا. نعم لقد تحدث جيلنا كثيرًا جدًا عن كل شىء».

«عن عدم قدرته على الكتابة؟ كان هو يأخذ هذا على محمل الهزل وكأنه شىء لا يستحق».

بقيتُ صامتًا فى مكانى خاوىَ الوفاض تقريبًا، أو شارد الذهن مع تتابع سقوط المطر خلف الزجاج. قالت السيدة: «ربما أكون

Twitter: @ketab_n

قد وصفت لك ما لم تكن تريده. ولكن يجب أن تعِىَ من تلقاء ذاتك، أنه يمكن أن يوجد شخص هكذا». فأومأت بإشارة تعنى أننى لم أكن أريد شيئًا خاصًا، أو أن ذلك لم يكن موضوع الحديث. فأضافت قائلة: «كان يمكن أن ينمو هنا فقط. فقد كان زهرة هذه المدينة، وذلك العصر الخاص لهذه المدنية». كنت لا أزال صامتًا. وكان يبدو لى أن «فى ذلك العصر الخاص» ربما كان كل شىء على قدر كبير من الأهمية والدقة. أى غاية فى العاطفية. وكأنه كانت توجد مسافة كبيرة. وقلت فى نفسى: «الآن الحديث أصبح مختلفًا وأكثر صلابة واعتدالاً وأقل تعقيدًا. وكل شىء يسير وفق الحدود المتوقعة بصورة يسيرة».

نهضتْ السيدة من مقعدها وذهبت إلى المكتبة وانحنت ببطء. وأخذت ما يقرب من عشرة كتيبات وحملتها بكلتا يديها مثل الطوب الأحمر، ووضعتها جانبًا فوق مائدة صغيرة. وعادت مرة أخرى إلى المكتبة، حيث كانت توجد، بعد الفراغ الذى خلفته الكتيبات، مجموعة ثانية من ظهور الكتب المصفوفة بالداخل. تصفحت السيدة كتابًا طويلا، قليل الصفحات، وحملته إلى هنا بعناية كبيرة. ووضعت الكتاب، وهى تجلس بصورة تجعل نصفه على ركبتى والنصف الآخر على ركبتيها. ونظرت إلىّ، ودون أن تقول شيئًا. فتحت ألبوم الصور.

Twitter: @ketab_n

كان عنـدى الوقت، هذه المرة فـى أن أستعد، بـل وأن أضع نظامًـا أفضل للتعامل فى تلك اللحظة. فقـد كان أمرًا مستحيلاً عدم مشاهـدة الصـور، ولكـن عندما كانت تقلـب الصفحة كنـت أتجه ببصـرى إلى الداخل نحـو أنفى أو فمى. وكنت هكـذا أنتظر حتى تقـول شيئًا. وكانت تقـول دائمًا شيئًا يتعلق بالصـور التى أمامنا، حتى وإن كانت كل صورة تحمـل شرحًا موجزًا بالحبر الأبيض. فعلى سبيل المثال قالت الآن: «إيمون فراموندى». «فراموندى» هـذا أنا لا أعرفه، ويمكننى أن أحرق صورته. شاهدت صورته، كان رجـلاً طويلاً، قوى البنية، أنيقًا، وربما على قدر من القناعة بأنه يستحق التصوير. أما الصورتان الأخريان، نظرًا لأنها كانت تمتلـك من الكـروت البنيّة الرقيقـة ثلاثة، فكانت تصـوّر «منزل فراموندى فـى فلورنسا». قلبـت السيدة الصفحـة، وكنت أنتظر كالعـادة وقالت: «مونتالى بجوار جراموفـون فراموندى». كان بالصـورة شاب منتفخ الوجنتيـن، وذو شوارب رقيقة. وفى آخر البذلـة الداكنة اللون والياقـة العريضة ورابطـة العنق، كان يبدو خُفه. وكان هو ينظر إليه فى شىء من الحيرة.

انتقلـت السيـدة إلى صفحة جديـدة وسارت علـى نفس النهج، إلا أن هـذه المرة استغرقت وقتًا أطـول، لأنها انتظرت لفترة قبل أن تقـول «. . . . زوجى». كان الرجـل يقف بمفرده مرتديًا زيّه

Twitter: @ketab_n

العسكرى فى إحدى الصور، أما فى الصور الأخرى، فكان يقف مع بعض الجنود. كان الزّىّ العسكرى فى عهد أسرة «سافويا» يبدو فى الصورة، وكان معطفه يبدو مشدودًا حول كتفيه. أما الآخرون فكانوا منكمشين قليلاً داخل معاطفهم الجبليّة المكرمشة.

قلت لها: «رجل جميل».

فردت قائلة: «نعم، جميل فى ظاهره».

وانتظرت دون أن أشاهد الصور. ومن حين لاخر كنت قلقًا وآسفًا من أن تلحظ هى ذلك. ثم أيقنتُ أنه أمر مستحيل، فقد كنا نجلس متجاورين.

قالت هى: «ها هو ذا». كانت صورته واضحةً، وقد أمعنت النظر كثيرًا. كان كارت الصورة أشبه بالجواش الداكن، سميكًا وباهتًا، وفى بعض اللحظات، ونتيجة لما كنت أبذله من مجهود، كنت أشعر بطنين فى أذنى. قالت السيدة فى هدوء: «كانت عيناه سوداء اللون وواسعة وغاية فى الجمال. مثل عينّى «كافكا». ولكن كانت تروقنى العيون الزرقاء. فإن لم تكن زرقاء فهى ليست بأعين» وقلبت الصفحة.

لم يكن هناك معيار فى عرضها للصور، وربما لو كان الأمر كذلك لكنت أكثر ارتياحًا، ثم انتقلنا إلى مشاهدة عربات مجازية وأقنعة كبيرة من الورق المقوّى، وعيد الكرنفال على كورنيش

Twitter: @ketab_n

البحر. ثم شاهدت بعض العلب المغلّفة فوق مائدة صغيرة، وقالت السيدة: «إنها هدايا عيد الميلاد الخاصة بى». ثم شاهدتُ ضوءًا يرمز للعقلانية بأشعته المتعامدة والمكعّبة، يتدلى من سقف فقالت: «هذا رسمته أنا». كان بالصور رجال جذابون ومبتسمون إلى حد كبير، ولم تكن تذكر أسماءهم، بل كانت تعلق قائلة: «كان هذا يعجبنى كثيرًا» أو «هذا كان شاعريًا للغاية». وهكذا كنت أكوّن فكرة عن نوعيته. بوجهه الصارم والحاد قليلاً فى شىء من الغموض. وقد مرت بالطبع صورته أيضًا، وفى مرات كثيرة، ولكن لم أكن أرى، ولا أستطيع أن أقول بماذا بررت ذلك، وفى لحظة معينة أشارت إلى «شفتيه المائلة قليلاً». وعندما كانت تصمت، كنت أفضّل ألاّ أخاطر أنا بالكلام، وإذا كان التعليق عامًا، مثل الذى كانت تقوله فى ذلك الوقت، فقد قالت ببساطة: «فى الرحلة»، فكنت أتدخل فى الحديث، ولكن دون تعجّل. فى الصورة الأولى كانت هناك سيارة وبداخلها سائق. وفى الثانية كان يوجد الرجل الذى كنت قد رأيته من قبل فى زيّه العسكرى، وهو يرتدى ملابس مدنية، وقدمه على إحدى درجات السلم الحديدى لصعود القطار، ويمسك فى يده كتيبًا، قالت هى: "كان زوجى يدرس الإرشادات».

فى الصورة الأخيرة، كانت السيارة تقف فى الخلفية عند طريق الجبل، وكانت هى تشغل الحيز الأكبر من الصورة، وهى تستند على شجرة. وعلقتْ على الصورة قائلة: «كنا فى طريقنا إلى جنوة».

Twitter: @ketab_n

وعندما كانت تقول: «الشاعر»، كنت أركّز دون مشاكل، فقد يكون «مونتالى». كان تقريبًا ودائمًا شاردًا أو عيناه تنظران إلى أسفل أو إلى أعلى، وينظر وكأن هناك قد وقعت لتوّها كارثة بسيطة يمكن التغلب عليها.

أعادت السيدة جانبًا من الصورة داخل المثلث الصغير الذى انزلقت منه إلى الخارج. وقالت: «لم يكن شديد الذكاء، أو على الأقل لم يبدُ عليه ذلك. كان يجلس صامتًا تقريبًا طوال الوقت، وعندما كان يتكلم كان يلح على نفس الأشياء. ولم يكن محاضرًا أو حتى ذواقة، كان فقط شاعرًا».

وفى صورة أخرى كانت تقف هى مع بعض الرجال، وفى خلفية الصورة إحدى مدن الشمال، وكان المنظر الطبيعى متميزًا فى الصورة الصغيرة، والتى كانت تكفى بالكاد لتشير بداخلها قائلة: «كنا هنا». ولم أفلح فى أن أفهم إذا كانت على قدر من الجمال. وكان هذا ما يثير دهشتى ويقلقنى فى ذلك الوقت.

ركزتُ ببصرى على إحدى ساقيها، التى كانت تظهر من خلال فستان طويل، كانت رقيقة ومستديرة تمامًا، ولكنها تكاد ترى. وفى صورة البحر، كان شعرها طويلاً ومبتلاً، وكانت ترتدى لباس سباحة مكشوفًا وملتصقًا بجسدها. وأشرت أنا إلى

Twitter: @ketab_n

شخصيـة نسائية شابة كانت تقـف فى الصـورة بجوارها وبجوار زوجها، فقالـت: «إنها الأخـرى». وبعد بُرْهة: «إنهـا تشبهنى، أليـس كذلك؟»، كانت تشبهها ولكنهـا كانت تفوقها قليلاً فى الطول والصلابة، كانتا تجلسان متجاورتين وبنفس الوضع. قلبت السيدة الصفحـة فجأة وواصلـت حديثها قائلـة: «هنا أتممـت دورة إتقان الرقصـ». كان يُرَى فى الصـورة قصرٌ محـاط بأشجار كثيفة. فشرعت أقول لها: «حضرتـك إذن ...»، فأجابت: «نعم، كنت أرقص أيضًا»، قالت ذلك بصورة فجّة.

سمعتها تقول: «سيقان يُقـال فيها شعرٌ». ولم أعرف ماذا أفعل أأنظـر أم لا. ونظـرت. كانـت هنـاك صورة وحيـدة فى وسط كارت، وكانـت الخلفيـة غير واضحة، وكانت الصـورة تبدأ من الخِصـر إلى أسفل. وكانت تتسلل من داخل تنورتها، ذات الثنيات ساقـان مغطيان بجـورب أبيض تنتهيان داخل حـذاء أبيض أيضًا قصير الكعب. كانت صورة تجريدية تمامًا. كانت الساقان طويلتين وجميلتين جدًا، كما كان يشفُّ عن ذلك الجوْرب. وقرأت المكتوب أسفل الصورة، فإذا هو: «دورا ماركوس».

وفى الصفحة التالية، كانت تجلس وهى ترتدى معطفها فى أحد المقاهـى، سيدة تظهر كاملـة ووجهها ممتلئًـا بالتجاعيد وعجوز. قالت هى: «كان الجميع يركزون على النصف الأكثر جمالاً».

Twitter: @ketab_n

قلبت الصفحة الأخيرة، وكانت خالية من الصور. وطوت غلاف الألبوم، وهى تمسك بثبات اثنتين أو ثلاث صور منفصلة، والتى ظلت هناك فى الوسط. نظرت إلى يدىّ المتسختيْن بالتراب، فقالت هى: «آه، إنه التراب. لن يضرك».

كنت أشعر أيضًا بالصداع، ربما لأننى أرهقتُ عينىّ بهذه الطريقة. نهضت هى وذهبت إلى المكتبة وأعادت الألبوم إلى مكانه مع غيره. وأخذت الكتيّبات من فوق المائدة الصغيرة وأغلقتها. وسألتها؛ إذا كانت هى التى كانت تقوم بالتقاط الصوْر. فأجابت قائلة: «نعم، لقد فزت أيضًا فى بعض المسابقات». عادت السيدة إلى المائدة الصغيرة، وأخرجت منها صورة مطبوعة كبيرة جدًا. واستدارت وهى ترفعها أمامها، كان بالصورة إطار لباب مفتوح يطل على بلكونة، وكانت أشجار النخيل تظهر خلف الدرابزين. كان هناك مقعدان من الأغصان مع انعكاس لماء البحر، وكان على أحد المقعدين يوجد مئذر. وقالت السيدة: «الجائزة القومية الثانية».

ابتسمتُ أنا أيضًا وقلت لها نعم. ونهضت وذهبت نحو المائدة الصغيرة فأعطتنى الصورة مقلوبة. فأدرت الصورة. كانت بها فتاة ذات شعر طويل منساب، وكانت ترتدى تنورة قصيرة جدًا. وكانت ساقاها واضحتين تماماً وقدماها عاريتين، وكانت ذراعاها وكتفاها نحيلتين ومشدودتين، وكان عمرها يبلغ العشرين تقريبًا،

Twitter: @ketab_n

وكانت تستند بظهرها على حائط من الزهور، تحت الضوء الجانبى لنافذة، والذى كان ينعكس من لون السرير الأبيض. كان وجهها يميل نحو نهديها الصغيرين والمرتفعين إلى أعلى؛ وكانت عيناها شبه مقفلتين، وكانتا تنظران إلى أسفل فى عفة تثير السخرية، مثلما هى الحال الآن، وأنا أعيد لها الصورة ببطء دون أن أقول كلمة واحدة.

وضعتُ هى الصورة فى مكانها. ونظرتُ إلى الساعة وأيقنت أن الوقت متأخر للغاية. فقلتُ لها: «يجب أن أذهب». اتصلت بتاكسى وسألتها عن العنوان بدقة، وأنا أغطى بيدى سماعة التليفون.

قلت لها وأنا أغادر المنزل: «أنا آسف». وكانت هى تنظر إلى ياقة المعطف. قالت: «هل يجب أن يكون طرف واحد بالخارج؟»، فنظرتُ أنا أيضًا وقمتُ بإعادة شد أزرار المعطف بصورة صحيحة.

كان المطر قد توقف، وكان كل شىء بالخارج يلمع مع مرور سُحُبٍ سريعة وحمراء اللون بأعلى، فتعطى رؤية متناقضة. وقد طلبتُ من سائق السيارة أن يسرِع فى سيره، فأخذ يتمتم ببعض العبارات، ومع هذا نزل مسرعًا بالسيارة من فوق التل. وعلى كورنيش البحر كانت السفينة «إليه دولرون» قد تحركت من مكانها فى طريقها نحو الرحيل، وكانت أشبه بسمكة كبيرة يظهر ثلاثة أرباع جسدها.

Twitter: @ketab_n

جريت داخـل باحة محطة السكـة الحديـد، وكان وقْع أقدامى يُحْدِثُ ضجيجًـا فوق الأرضية المطاطية، وأنـا أنظر إلى لوحات مواعيـد القطـارات دون أن أتوقف. كانت نوافـذ القطار مغلقة، وكان هنـاك بعيدًا ضوء أخضر. تعلقت بمقبض أحد أبواب القطار الذى بدأ يتحرك، وكان ناظر المحطة عائدًا إلى الخلف، فزجرنى قائلاً: «ماذا تفعل حضرتك؟».

وبقيـتُ لا أدرى كـم من الوقـت وأنـا أستند على بـاب يربط بين عربـة القطار وأخرى فى مساحة منبسطـة. وقلت فى نفسى: «هـذه الطريقة فى الجَرْى تملأ كل شـىء، ولا تترك مساحة حتى للتخيُّـل». وبعد قليل عثرت على مـكان بين مقاعد إحدى العربات التى كانت تقريبًا خالية من الركاب، نظرت إلى الخارج من نافذة العربـة، وكان ينتابنـى إحساس بـأن شيئًا ما بـدأ يتغير. قلت فى نفسى: «لقد أتيت إلى هنا لكى أفهم لماذا لا يكتب كاتب من الكُتّاب. والآن أصبحت الأمور أكثر تعقيدًا».

وإزاء الأشيـاء التى تـزداد تعقيدًا، أصبحـتُ متوترًا، وعندما يعترينى التوتر أحاول أن أخلد إلى النوم.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

كان البعض منا يمثل بعض شخصيات أعماله الأدبية. وقد تحرر من ذلك تاركًا هذه المدينة، ولكنه فقد هذه الشخصيات، وكان ذلك واحدة من خساراته العديدة. حضرتك تعرف أن المؤلف يمكن أن يتحرّر من شخصياته من خلال الحكاية، أو ربما لا يتحرر منها. وقد فعل معنا شيئًا مختلفًا، ومع تقدم العمر استطعنا أن نعرف بعضنا بعضًا، لم يتم وصفنا في صفحة، كما كان معتادًا، ولكن كان يجعلنا نتحرك من خلاله. وكان يجد دائمًا نقطة يعطي من خلالها تصاعدًا للمواقف أو للأشخاص. وربما من أجل هذا لم يعد مرة أخرى أو أنه عاد سرًا، وعلى أية حال فنحن لم نره مرة أخرى.

كان الذين يكتبون هنا، يستمعون له كثيرًا، ولكنه كان يهتم بنا بصفة خاصة، لأنه في نهاية الأمر شعر بضيق تجاه الأشخاص الذين كانوا يكتبون، وكأنه كان ينتظر منهم أكثر من ذلك، ولكن على صعيد آخر، وربما أصيب بالإحباط من أن يكون المرء شاعرًا ولكن ليس برجل شجاع، وكان يقول «فلان يعيش ويكتب أبياتًا جميلة، ولكن إذا كان فلان لا يعيش ليكتب أبياتًا جميلة»، فكم

Twitter: @ketab_n

تكون قبيحة أبيات فلان الذى لا يعيش ليكتب أبياتاً جميلة وربما كان يختفى من أجل هذا. وكان يختفى دائمًا. وكان يتعامل مع النساء كصديق وليس كعاشق. فالصديق يضع نفسه خارج المنافسة، ويحتفظ بكل الاحتمالات دون إهدارها، بل يضعها فى المقدمة كضمان، وكان إغراؤه أمرًا عسيرًا يتطلب الكثير من الوقت. فياله من صديق! وسأحدّثك عن معاملته للنساء، لأن ذلك الأمر يشبه إلى حد كبير تعامله مع الكتابة، فكل شىء كان يتحرك حوله وبجانبه، حتى وإن كنت أعتقد أن بالنسبة له كل شىء كان رئيسيًا بصورة مؤلمة. وربما تفضل لو أنه قد تم التعامل معه كشىء سفلى فى منحنى الكتابة، أو وددت أن تجد صورًا للدائرة أو للمركز، أو للإطار أو للامتلاءات أو للفراغات. ولكن بالنسبة له فكل شىء ربما يفيد فى أن يعرف المرء كيف يعيش، فهو أمر جوهرى وحقيقى ومباشر، لكى يستطيع أيضًا أن يكتب. وكان قد تعلّم الكتابة على الآلة الكتابة، وذلك بكتابة عدة ورقات يوميًا. وأعتقد أنه كان يبحث عن عمل. ثم احتفظ بعد ذلك بتلك الصفحات، وأطلق عليها «الصراع مع الآلة الكاتبة».

كان يحاول أن يكتب بسرعة، أن يكتب وكفى؛ كان يكتب ما يجول بخاطره، وكان أهم شىء بالنسبة له هو؛ أن يملأ الأوراق بالكتابة، كان ساخرًا وعاطفيًا. لقد كتب أيضًا: «إننى أستمتع قدر

Twitter: @ketab_n

العالـم ونصفـه» أو «إن هوسى الشهير يكمن فـى اهتمامى بشئون الآخريـن، وذلك بسبب غياب حياتـى». كان يبلغ فى ذلك الوقت نحـو عشرين عامًا أو أكثر قليلا، ولكن كان من الواضح أنه سوف يكون صديقًا للكتابة، وليـس مجرد شخص يكتب. فصداقة الكتابة هى مكمـل للكتابة فقط من أجـل الأصدقاء. ويال كـم الخطابات! وكاتـب الخطابـات لا يجازف بذاته فى شـكل الخطاب، حيث إن شـكل الخطـاب لا يكمن فيمـا هو مكتـوب ولكن فـى كونه علاقة حيـاة. إنه الكاتـب الوحيد الذى كسب بالفعـل قارئه، وربما بجهد ليس بالهيّن، حتى وإن كان على صعيد آخر. فقد كان ينظم الشعر كهدايـا لصديقاته؛ وكأنه كان يتخـذ الشكل لعبة لأنه كان من الجلى أنـه يعرفه. إنه لأمـر غريب، فواحد مثله، والـذى كتب فيما بعد كتابًـا غير مكتمل عن الرحلة الكبيرة، واحد ساخر مثله، كان هكذا صارمًـا لدرجة أنـه لم يحمل على محمـل الجد أو الهـزل مصيبة الشـكل. وربما قرر أن يكتب فقط ملاحظات فى نهاية الصفحات، ولكـن المخاطرة توجـد دائمًا علـى الصفحة. بعضـ منا كان من شخصيـات كتاباته، ثـم قام بتغيير هـؤلاء الأشخاصـ، رغم أن البعضـ قد تصور أن فى مثل حالته لم يكن الأمر ضروريًا للغاية. وربمـا تغير هو أيضًا بعد ذلـك مع الزمن. لقد تركنـا مثلما يترك المـرء شيئًا قديمًا لا يحتمل. وأعتقد أن فـى ذلك يكمن الضيق لمن

Twitter: @ketab_n

يجدد ذاتـه باستمرار وبصـورة غير تقليديـة؛ فالماضى فى نظره يبدو مثل الجلـد الجاف الفارغ والمرفوض. وفى هذا المعنى كان هائمًـا، حتى وإن كنـت لا أستطيع أن أقول لك مـا إذا كان الخطأ يكمن هنا فى ذلك القبطان الذى كان يتساءل فى نفسه دائمًا أين أنا.

الآن أنـا فـى البحر، فـى وقت الظهيـرة، وقـد استلقيتُ فوق «الوندسـرف» والذى لم أعـرف كيف أستخدمـه بصورة جيدة. ومن حيـن لآخر كنت أغمس ذراعـىّ فى المـاء لإعطائى اتجاهًا معتـدلا، وكانت أفكارى أيضًا تتقدم نحـو الأمام بصورة متساوية تقريبًـا. كان يبـدو لى أننـى جئت إلـى «تريستة» فقـط من أجل الواجـب، ورأيتنى أعتاد على أشيـاء مثل الشوارع، بعض منها، وكذلـك بعض المقاهى وبعض الحافـلات، وتقريبًا نفس العناوين ونفس الأرقام التليفونية.

أيـام مثل هذا اليـوم كنـت أبدأها بعزيمـةٍ صابـرة على تحمل تكـرار نفس الأشياء. وهـذا الصباح أيضًا، مـا إن وصلت، حتى قمـت بالاتصالات التليفونيـة المعتادة من المحطـة. وقد أصبحت المحادثـات طويلة ومبهمة، وهو دليل على أنه لم يكن لديهم أخيرًا موضوع يُثار.

لـم أفلح فى تخيُّل هذه المدينة فى فصـل الصيف، أو ربما كنت لا أزال فـى حاجـة إلـى حماس الشهـور الباردة، ولكـن ما كان

Twitter: @ketab_n

يحزننى أيضًا، أن ملابسى كانت مختلفة عن ملابس الناس الذين كنت أتقابل معها بالطريق. فاشتريت من متجر كبير لباس بحر ومنشفة ووضعتهما داخل سلال من أغصان الصفصاف. وسرت عبر كورنيش البحر نحو القلعة، واستلقيت فوق مجموعة من الأحجار، وأصبحت أخيرًا إنسانًا معاصرًا مثل الآخرين.

كنت فى البداية أشاهد فقط «الوندسرف» وهو فى البحر، ثم حاولت أن أعرف من أين ينطلق، وفى النهاية استأجرت واحدًا منها. وقد ساعدنى البعض فى دفع «الوندسرف»؛ وأعطونى دفعة كافية للتحرك. وأشرت أنا لهم بيدى بأن كل شىء يسير على ما يرام، كنت أفقد اتزانى وأميل نحو الخلف لفترة ثم حاولت استعادة توازن كل الأجزاء: السارى، والشراع وأنا ذاتى، وحتى عندما نجحت فى ذلك لم أتجاوز بضعة أمتار، وكانت حركتى على شكل دائرة. وفى كل مرة أعود فيها إلى الماء أجدنى مثل عقرب الساعة أبدأ من الصفر. أسندت رأسى فوق «الوندسرف» وقد حل بىَ الإجهاد، ورجعت إلى الشاطئ، وسألت البعض إذا كان من الممكن جذب الشراع.

الآن أنا مستلقٍ بظهرى فوق «الوندسرف» بعيدًا إلى حد ما عن الشاطئ، والضوء البرتقالى الساخن يمر عبر جفونى النصف مغمضة. كنت أشاهد الطائرات المتناهية الصغر وهى تحلق فى

Twitter: @ketab_n

السمـاء بلا ضجيج تقريبًا. كنت هادئًا ومسترخيًا فوق عمق لا يعلم عدد أمتاره. وهنـا تكمن بالفعل المشكلة: كم عـدد الأمتار؟ وماذا يوجد تحت هـذه الأمتار؟ فهناك دائمًا لحظة، عندما أختلى بذاتى، أفكـر فيهـا فى مثل هذه الأشيـاء، لا أدرى مقـدار العمق هنا، فقد تكـون مياهًا ضحلة أو أساسًا تحـت الماء، والآن وأنا أسبح بقدمى ربما ألمس قطعة معدنيـة يعلوها الصدأ، أو شبحًا مرئيًا ومتحركًا، أو سـن جناح مهشمًا. وشعرت تحت جلد قدمى الرقيق جدًا بملمس بارد لعلبة معدنية مظلمة ومثنية، وانزلقت على جانب حطام مفقود لـم يتم تحديـد موقعه أو موقع ما تبقى منه بعـد عملية غطس طويلة هكذا.

كنـت أشعر وأنا فوق «الوندسرف» بالأمان، ولكن كنت أسير علـى مهل. رفعت صـدرى ورأسـى إلى أعلى، وبـدأت أحرك ذراعـىَّ فى الماء فيتناثر الكثير من الرذاذ، وجدّفت، وأنا مغمض العينيـن، بـكل مـا أوتيت من قـوة ورحت أركز علـى مجهودى الجسدى حتى لا أفكر فى شىء آخر. كنت أسمع البشر تقترب دائمًا وأصبـح الماء أكثر دفئًا، وأخذت أركل بقدمى إلى أن وصلت إلى الشاطـئ فتوقف «الوندسرف». جلست علـى الشاطئ وأنا أمتطى «الوندسرف». كنـت أنظر وأنا مسرور إلـى قدمى المنغمسة فى الماء المنخفض الصافى.

Twitter: @ketab_n

عبـرت مرة أخرى ميدان البلدية الكبير وأنا أسير دائمًا بمحازاة كورنيش البحر. دخلت مقهـى الشاطئ حيث كان عندى موعد مع «أنجلو» كان الوضع مختلفًا مقارنةً بموسم الصيف: فقد كان الجميع يرتـدون ملابس كاملـة إضافة إلى رابطة العنـق، وكانوا يقرأون الجريدة فى الضوء الخافت فى أى شهر؛ كان شعرى لا يزال مبتلاً، وكنـت أحمل المنشفة تحت ذراعى. وقـد قدمت الاعتذار عن ذلك وأن أجلس على مائدته. نهض هو بكتفيه قليلاً وقال:«كلهم موتى. المكان هنا يعج بالموتى. يائسون»، فأصدرت إشارة لأخفف عنه، ولكن كانت ابتسامته مشرقة وناعمة مثل شخصيته بالطبع.

كان هناك فى آخر المقهى بالفعل شىء غريب يحدث عند المائدة الملتف حولهـا عدد كبير من الأشخاص العجائـز، الذين يجلسون وأمامهـم بعض الأقداح، والذين كانوا يتحركون وفقًا لكل محادثة محتملـة فيما بينهم. قـال هو: . . . كانت هناك فى يـوم من الأيام مقاهٍ كثيرة. ولم يتبق منهـا الآن إلا القليل. وتوجد بعض المقاهى التى تعقد فيها اجتماعـات ثقافية. أتعرف، فى هذه المدينة يعقد فى عصـر كل يوم مؤتمران. . . « وفتح الجريدة ونظر إلى ما بها فى ذلك اليوم. سألته: «هل ستذهب إلى هناك؟». فرفع عينيه من فوق الجريدة، وابتسم ابتسامة عريضة قائلاً: « لا . . . »، طوى الجريدة عـدة مرات بعناية؛ ووضعها فى جيبـه. وأشار إلى الأوراق التى

Twitter: @ketab_n

كانت توجد على الموائد المجاورة، والمثبّتة فوق بعض الحوامل. وقال: «... كيف يمكن قراءة جريدة الآخرين؟... يجب أن تكون الجريدة ملكًا لى. فأنا لا أستطيع أن أقرأ جريدة تصفحها شخص غيرى من قبل...».

أراد هو أن يعرف أسماء الأشخاص الذين تحدثت معهم، ثم قام بالتعليق عليها فيما لا يزيد على كلمة أو اثنتين لكل شخصية. ثم ابتسم بعد ذلك قائلاً: «... وكيف حال، كيف حال الذاكرة؟...»، فكرت فى المعانى التى يمكن أن يشتمل عليها السؤال، دون أن أجد معنًى صحيحًا فى حينه؛ فأشارت بإشارة مبهمة. وكان يبدو لى أن لحظات السكون التى يستغرقها كانت أقل بالمقارنة بلقائنا السابق. قال: «... هل تعرف أننى فى الماضى كنت غير قادر على تكرار شىء كنت قد قلته من قبل؟... كنت أتكلم مع شخص جديد، والذى لم يكن يستطيع معرفة ذلك، ورغم هذا كنت أشعر بالضيق...، ثم تعلمت تكرار الأحاديث. إنه لأمر جميل. وكأن المرء يتقاضى عائدًا عادلاً عما يمتلكه...، ومع هذا فإننى أذكر الشىء المكرر وكأن لا علاقة لى به...»، كنت أعتقد أنه لا ينتظر إجابة منى وبقيت صامتًا.

ومن حين لآخر كنت أشاهد بذلته ذات اللون الرمادى المتغير، أو الأرقام المكتوبة على قميصه عندما كان يأخذ السجائر من

Twitter: @ketab_n

الجاكت. سألنـى: «. . . وأين ستتناول طعام الغداء؟»، قلت: «لا أعـرف، ليس لدىّ برنامج محدد». فوضـع إصبع السبابة المثنّى أمـام فمه وقال فى حذر: «يمكن أن نتناول وجبة سمك معًا. . .»، فأجبته بالموافقة.

خرجنـا من المقهى وسرنا عبر كورنيش البحر حتى وصلنا إلى محطـة أتوبيس. وجلس هو على الجانب بجوار النافذة، وبقيت أنا واقفًا على قدمىّ؛ ومن حين لآخر كنت أنحنى لأرى طراز العمائر، والذى مـن خلاله كان يشير إلى مرورنا مـن الحى التريستى إلى الحـى الجوزيبى. ومضينا فـى ذلك الاتجاه مـن المدينة، والذى كنـت أراه «ذا طابـع يوغسلافـى». كان هـو ينظر مـن النافذة، وكانت الشوارع غير مزدحمة بالسيارات وكانت الشمس ساطعة؛ وبدأت قطرات من العرق تبلل جبينه.

نزلنا من الحافلة، وسرنا على أقدامنا لمسافة ليست بالقليلة دون أن نتكلـم، ودخلنا مطعمًا ذا تراس يقف على أعمدة خشبية، ويطل علـى شاطئ يخلو مـن البشر. قال لـى وهو يبعد بيـده ستارة من المعدن الرقيق: «هذا المكان كان دائمًا عند حسن ظنى به».

نـزع الشوك من سمكته باقتـدار، وانتظر، دون تعليق، حتى أنتهى من نزع الشوك من سمكتى. وعندما بدأت فى أكْل السمكة،

Twitter: @ketab_n

سألنـى: «. . . لذيذ؟»، فقلت له إنه طيب المذاق، وقلت ذلك أيضًا لمدير المطعم الذى جاء ليستطلع الأمر. وأخذا يتحدثان فيما بينهما ويضحكان وهما يرفعان أكتافهما إلى أعلى. ونظرت أنا إلى المرأة ذات القبعـة على رأسهـا، وهى تضرب الجمبـرى بشفرة السكين فوق أُورمة جزار.

استأنـفَ حديثه معى عن الأمراض التـى كان قد فرغ لتوّه من حديثـه عنها مع مديـر المطعم. وقال: «. . . لقـد تزوجت فى سن متأخرة، وماتت زوجتى منذ بضع سنوات. . . ومع هذا أسير إلى الأمام كسفينـة مصابة بصاروخ فى بطنهـا. . .». ضحك ضحكة عريضة ثم شرب. «. . . هذا الصباح اتصلت بى صديقة»، سأذهب إلـى الصين من خـلال رحلة منظمـة «. . . هل ترى أنـه يمكننى الذهـاب إلى الصيـن»؟ «فقلت: حسنًـا، نعم». ثم أضـاف قائلاً: «. . . لكنى أود أن أذهب إلى منزل صينى، وأن آكل مع الصينيين وأن أذهـب معهم إلى السينما. . . المتاحف ترهقنى، وهناك أشياء كثيـرة تستحق الرؤية مثل شاطئ البحـر فى الصيف ومن الصعب الاختيـار، فضلاً عن أننى غير متأكد من أنهم لن ينظروا إلىّ أثناء مشاهدتـى للوحات، فلابد أن يكون لدى المـرء شىء يفعله عندما يذهب إلى الخارج، يجب على المرء أن يذهب إلى هناك من خلال عمل، وليس من أجل الترفية. إذن من المعقول» ونظر إلىّ قائلاً:

Twitter: @ketab_n

«. . . هل تعتقد حضرتك أن لدىّ شيئًا أعمله فى الصين؟»، فأجبت قائلاً: «لا أدرى، فالصين بلد شاسع جدًا».

كان يدخّن وذراعيه متشابكان، وكان يتابع حركة الأمواج المنخفضة حول أعمدة التراس. وبقيت أنا صامتًا. ورغم التفاوت البسيط بينى وبينه فإننى كنت أعتقد بوجود ما يجب أن يوجد بين شخصين تناولا طعام الغداء معًا. قال هو: «. . . لو وضعت يدىّ فى الماء. . . هل تتخيل حضرتك؟ إنه شىء ما يبدأ هنا وينتهى فى القاهرة أو طرابلس أو طنجة، حيث قد يوجد شخص آخر على الشاطئ يجلس واضعًا يديه فى الماء. نعم، أعتقد أن هذا هو أسلوبى فى السفر. . .»، اعترانى إحساس جاد بالحديث عن نفسى بصراحة؛ أو على الأقل أن أقول شيئًا صادقًا عن الترحال. وتمنيت بعد ذلك، وكالمعتاد، أنه من خلال الإشارات ونبرة الصوت سوف أوحى إليه بأكثر مما كنت أتخيل. وعندما أصر هو على دفع الحساب، فكرت فى كيفية تقديره، على المستوى الاقتصادى لليوم الذى قضاه معى، للمال والوقت اللذين أهدرهما فى هذه المناسبة.

ومع عودتى سيرًا على الأقدام عبر كورنيش البحر، تحدثت معه كثيرًا. وقطع هو حديثى فقط عندما اقتربنا من فتاتين. وسرنا

Twitter: @ketab_n

خلفهما عن قرب؛ وكان هو يصف، فى صوت خافت، الفرق بين النساء السلافيات والإيطاليات. وكانت له ابتسامة شبه طفولية.

ووصلنا بالحافلة إلى وسط المدينة؛ وانتظرنا عند نفس المحطة وصول الحافلة التى سوف يستقلها هو ليعود إلى منزله. صعد الحافلة وهو يمسك الباب بكلتا يديه، وكان يبدو قصيرًا وثقيلاً فى حركته. وقبل أن يغلق السائق الباب، استدار وابتسم وتنهّد ثم ألقى إلىّ بالتحية مرة أخرى من خلال زجاج الحافلة التى كانت قد برحت المكان.

حانت اللحظة التى لم أعد أشعر فيها باستغراب الآخرين من رؤيتى هنا. فقد كانت المدينة فى جانب منها مألوفة، وفى الجانب الآخر تبدو غريبة، أى أنها كانت مريحة، وفى ذات الوقت لا يمكن وصفها مثل أى مدينة أخرى. سوف أكف، فى المستقبل، عن المجيء إليها دون أن أقرر ذلك، مع تأجيلى للمجيء من أسبوع إلى آخر، وفى صباح اليوم المحدد للسفر سوف أستيقظ متأخرًا جدًا لكى أستقل القطار، وفى الأيام التالية سوف أكون قد اقتنعت تقريبًا بالبقاء بها. وحتى القلق اليسير الذى انتابنى لعدم فهمى لبعض الأمور سوف يختفى تمامًا.

وبدا لى أننى أسير عبر طريق يعبر بى من الأوراق إلى التجربة العملية، رغم عدم معرفتى بنوع هذا الطريق. ومن

Twitter: @ketab_n

المحتمل أن أبدأ من الأسماء اللامعة فى الصفحات، بصورة أفقية، والتى أصبحت الآن أسماء خالصة، مجردة ومؤثرة؛ ثم سأتجه بعد ذلك نحو الحجم الكبير والمزدوج والذى نزعت منه فى لحظة إعادة الكتابة. وسوف أبحث مرة أخرى فى مسألة الأوراق مع اختراعى، من جديد، لزوايا التصوير. وربما، إنه من الحقيقى أنه لا توجد الرحلة أو الحج، ولكن فقط التأرجح مثل أيامى التى تستمر من الصباح إلى المساء، وهى محاطة ومغطاة بالنوم. وربما كان من الممكن أن أقول ذلك «لأنجلو» عندما تحدث عن طرق السفر. وهكذا ونتيجة لاستغراقى فى الورق، كنت أشاهد المرأة التى كانت تسير هنا وهناك بميدان البلدية وكنت أعتقد، لأول وهلة، أن ما يحدث ما هو إلا تهيؤات. كانت المرأة فى ريعان شبابها، ولكن ملابسها كانت كلاسيكية: فقد كانت ترتدى بلوزة مدببة ومثبتة من خلال دبوس عند عنقها، وكانت ترتدى تنورة طويلة مزركشة، وكانت الزركشة محاطة بشريط ملون. وكانت خطواتها تسير وفقًا لردائها وللقبعة التى كانت على رأسها؛ كانت تحرك مظلتها الصغيرة هنا وهناك، وكانت تتمايل لتجذب الأنظار إليها وكنا جميعًا نشاهدها. ولكن كان من المريح الاعتقاد بأنه لا يوجد لدىّ أى حنين على الإطلاق يربطنى بهذه المدينة.

اتصلت عبر الهاتف بالسيدة صاحبة البركار لأحييها. فقال لى: «هل عندك وقت لتناول قدح من الشاى؟»، وبعد أن ذهبت إليها

Twitter: @ketab_n

فـى منزلها، قالت لى مرة أخرى: «هل تأتـى معى لنعد الشاى؟» فدلفـت إلـى داخل مطبخ كبيـر ذى أرفف خاليـة؛ كل رفٍّ مضاء بضوء خاص ومحدد، وضلفات زجاجية معتمة لا تسمح برؤية أى قطعـة بداخلها. وبينما كانت تعد الشاى قلت لها: «يروقنى أن أقوم بالطهـو هنا»، فردت قائلة: «هل حضرتـك طاهٍ؟» فأجبت ضاحكًا «بـلا». «ولكن يروقنى شراء الخضروات ومشاهدة مدى نضارة الأوراق فوق موائد العرض المختلفة، ثم العودة إلى الخلف، حيث توجد الخضروات الطازجة فأقوم بفرزها واحدة تلو الأخرى، ثم أتناقـش مع البائع حـول الأسعار». فقالت هـى: «ولم؟». فقلت: «فى المدينة التى أعيش بها مناقشة كل شىء يعد نوعًا من الواجب، وكثيـرون يصفون ذلك بأنـه دليل على أنه مازالـت توجد علاقة إنسانيـة». أنا أركز بصورة أكبر على المشتروات دون الاكتراث بالأخبـار ذات الطابـع الشخصى، وما يعنينى هو فـن شراء أشياء عاديـة وكأنها غير عاديـة، وكأنها أعطيت لك، ليـس لأنك تدفع ثمنها ولكن «لأنك بالفعل تستحقها».

وضعـت السيدة إبريق الشاى على المائـدة مع الأكواب وقطع البسكويـت. جلست ثم قالت: «وبعد شـراء الخضروات ماذا تفعل بها؟»، فقلت أقوم بتنظيفها وأتركها فى الماء طوال فترة الظهيرة، ثم أجلس أمام تليفزيون صغير حتى يتم طهوها.

Twitter: @ketab_n

فقالت لى: «هل حضرتك نباتى؟». لم أكن أتصور أن مسألة الخضروات سوف تأخذ كل هذا البعد، وأجدنى الآن أسيرًا لمقارنة معقدة بين طهو اللحوم وطهو الخضروات ومعلقًا فى الفراغ بلا أفكار. وفى النهاية قلت لها: «هناك توازن تام بين الألياف والماء».

انفجرت ضاحكة، ثم قالت فى جدية: «وهل من الممكن أن تكون مسرورًا؟»، رفعتُ كتفىّ إلى أعلى وقلت: «لا أدرى، فدورة الطهو تستمر طوال اليوم».

هزت هى رأسها قائلة: «لا، لم أكن أقصد أن أقول .... على سبيل المثال، كيف تعد الطعام لحضرتك فقط؟»، فأجبت قائلاً: «بشىء من الدقة». فألحت قائلة: «كما لو كان هناك آخرون؟ بوضع مفرش على المائدة والخبز المقطع داخل سلة؟». أمعنت التفكير قليلاً، ثم أشرت بصورة مختصرة قائلاً: «أعتقد أنه يجب أن نكون رسميين عندما نأكل بمفردنا». فقالت هى: «إذن حضرتك تعد أولاً كل شىء وتضعه على المائدة؛ ولا تنهض فى كل مرة لتأخذ من الثلاجة ما تحتاج إليه وتأكله هكذا كما هو؟». فقلت لها: «كيف يكون ذلك، وأنا أمضيت لتوّى فترة الظهيرة فى إعداد الخضروات؟». ثم أضفت قائلاً: إن الأمر يتوقف على الظروف

Twitter: @ketab_n

لا أعرف. «وهل تشاهد التليفزيون وأنت تأكل؟». فقلت: «نعم، اترك التليفزيون يعمل ولكن بلا صوت. فأنا أستمتع به مثلما كنت أستمتع بالموسيقى، إلا أننى الآن أفضّل رؤية المشاهدة عن بعد».

تناولنا الشاى فى صمت. ثم قالت فى هدوء جمٍّ: «لم أتعوّد على الجلوس على مائدة الطعام بمفردى ولا على مشاهدة التليفزيون وأنا أتناول الطعام... فأنا لا أفلح فى الاستمتاع بالتليفزيون بسبب ضجيج أدوات المائدة. وأتصور أننى أرى نفسى عندما آكل، وعندئذ يبدو لى أن الوقت لا يمر أبدًا... فلو لم تكن لدىّ المرأة التى تعد كل شىء، أعتقد أننى قد آكل أى شىء، وأنا واقفة على قدمى وكفى». وظلت لبرهة غارقة فى التفكير، ثم قالت: «أيضًا الدخول إلى أى غرفة ورؤيتى أن أحدًا لمس شيئًا... ولكنى أرحلُ دائمًا إلى مدن أخرى...».

شعرت أن الحديث بدأ يأخذ منعطفًا آخر، وربما كنت أفضل أن أظل محاصرا داخل المطبخ. ومع حديثنا عن المدن، أصبحت أكثر ودًا وصفاءً، أو ربما نتيجة لرفاهية الموضوعات، أو نتيجة للوهم الذى يعيش فيه المرء لوجود الأشياء من أجله ومعه.

وكنت سأبقى لأواصل الحديث معها، ولكن موعد القطار داهمنى.

Twitter: @ketab_n

وفـى القطار كانت هنـاك ثلاثة أمور، ربما مـن نفس النوع، حتـى وإن كنت لـم أفلح فى فهمهـا. أما الأمـر الأول فكان لطفل يحـرك قطـاره الصغيـر المصنـوع مـن البلاستيـك هنـا وهناك ويصطدم بالزجاج، وربما كان بذلـك يحقق سعادته الطفولية من وجوده داخـل القطار، والاستمرار فى التحكـم فيه من الخارج. كان منهمـكًا فى لهوه، ولكن ربما كان القطـار اللعبة يعوّضه عن عدم رؤية القطار الحقيقى من الخارج. كان الطفل يستخدم القطار اللعبـة بتلقائية وبالطريقـة الصحيحة كما هى الحـال لقطار صغير داخل قطار كبير.

أما الأمـر الثانى فهو، أن الطفل وأمه وأنـا كنا فى هذا الجانب من القطـار السريع القديم، والذى كان يبـدو كأنه صالون صغير بـه ثلاث أو أربع فوتيهات وشرفة من الخشب الفاتح، والتى ربما كانت بـارًا فى يوم من الأيـام، أم الآن فهى خاليـة. فالقطارات الجميلة هى التى يوجد بها بعض العربات على هيئة منزل، فالأثاث متحرك بالفعل، مثل الثابت ذاته، وبالتالى كل شىء يمكن تحريكه وسفـره، لكن موضع الأثاث لا يتغيـر ولا يمكن سفره، فهو يظل ثابتًا فى مكانه كما هى الحال فى المنزل.

Twitter: @ketab_n

وأخيرًا، وعندما مررنا بالجزء الضيق بين الصخور والبحر، عند مخرج المدينة، وأضاءت ومضة ضوء نافذة القطار، ورسمت لبرهة، على الأرض ما يحيط بالأشياء. شاهدت من خارج النافذة المنارة البيضاء الأثرية: كان من الممكن تخيُّل خط ذلك الضوء الخاطف الذى يصل إلى العين من البحر، وكيف يمكن التعرف عليه من تكرار الحدث ونوعه ولون الضوء. فالبحار يتبع ضوء المنارة من خلال حساب المسافة باستمرار، وأعتقد أنها طريقة طيبة أن يقوم البحار بالاقتراب من الأشياء، وذلك بقياس مقدار البعد. وشاهد الطفل أيضًا فى انبهار المنارة، ورأيت أنا عينيه من الجانب، كانت عيناه الصافية وحدقتها المستديرة أشبه بكارت دعوة ملون يقف خلف شريحة زجاجية. إن عدم وجود شىء يُرَى على الإطلاق داخل العين يصيب المرء دائمًا برجفة يسيرة. لذا أغمضت عينىّ وخلدت إلى النوم.

Twitter: @ketab_n

الفصـل الخامس

انطفـأت الكتابات المضـيئة الآن، وذكر صوت المضيفة الأتوماتيكـى أين وكيف يمكن التدخيـن، قمت بفك حزام الأمان، ودفعـت مسند المقعد إلـى الخلف برفق، بين الأيـادى التى كانت ترتفـع لضبط فتحـات الهواء البـارد وغير الطبيعـى، أو لإشعال السجائـر «أخيرًا»، أو التى كانت تبحث فـى جيب المقعد الأمامى عن أى شىء لقراءته، حتى كتيبـات الإعلانات الداخلية بصورها الظليّة وأطواق النجاة.

عندمـا تكون الطائرة هكذا كبيرة، وبها أقسام مغطاة بالستائر، وعندمـا يكون صـوت محركاتها يـكاد يسمـع، ونوافذها صغيرة للغايـة وبعيدة عن الصف الرئيسـى الذى أجلس فيه، فإن هذا ربما يعنى أن هناك فى نهايتها أى شىء آخر.

وفى الأمام بعيدًا، ومن خلال الضوء الأزرق والرمادى لكابينة القيـادة، كان القائد، الذى ذُكـر اسمه لنا، يشاهد على لوحة التحكم كرة الأفق الصناعى الصغيرة، والتى كانت تعود ببطء إلى الاتجاه الأفقى، بما يتفق مع الماكيت المصمم للطائرة، ومع الطائرة ذاتها،

Twitter: @ketab_n

وكلاهمـا فى رحلة طيـران منتظمـة ومستقيمة بعـد صعود طويل (عندما مرّت المضيفة عبر ممر الطائرة بخطوات بطيئة) . وسوف يتخذ القائـد أو مساعده الاتجاه 292، وهو بمثابة إقلاع مثالى فوق البحـر من مطـار «فيوميتشينـو» بروما؛ وبعد أربعيـن ميلاسوف يتجهان نحو اليمين تجاه النقطة «Alpha» لنحو 23 درجة، وهو ما يلزم للسير فى الطريق المثالى، والذى تم تحريكه نحو 315 درجة بالنسبة للشمـال المغناطيسى، وهو إشارة عاليـة التردد، وبالتالى فهى لا تتأثر بسوء الأحوال الجوية، وهى علامة توجد بين المحطة «Vor dell'Elba» ومقدمـة الطائـرة. وسـوف يحرصان على الالتزام بالطيران بصورة فعلية وفقًا للاتجاه، المثالى بسرعة 800 كيلو متر فى الساعة، وعلـى ارتفاع 31000 قدم، وسوف يتبعان الأرقـام المتناقصة على الـDme، وهـو مقياس المسافة من Vor إلى الصفر، الذى ظهر بوضوح فوق المحطة «Elba». وبعد ذلك وبالاتجـاه نحو اليسـار بزاوية قدرها 7 درجـات فقط، وهى هكذا يسيـرة لدرجـة أن لا أحد منا سوف يشعر بذلـك، وسوف تأخذان الاتجـاه الجديد 322، والذى يتحرك مـن ذراع القيادة حتى Vor di Torino. وعلى أية حـال فإن الطائرات التى تحلق فى السماء تطيـر وفقًا لهذه الخطوط ما بين محطات متباعدة ومرتبطة ببعضها مثل عربات وسائل النقل المعلقة.

Twitter: @ketab_n

وسوف يفحص القائد أو ربما مساعده النقاط المتوسطة، وسوف يفتح الخريطة ويراجع المسافات الجزئية: 25 ميلا بين «Mauro» و«Corner»، و 55 بين «Corner» و «Yankee»، وما يشبه مثلثًا صغيرًا تخيليًا يقع بعد جنوب مدينة «جنوة» بقليل. وهذه الخريطة ما هى إلا جزء من خريطة أوربا الوسطى، والتى بدورها تشكل جزءًا من خريطة الملاحة الجوية الدولية. وهذه الخريطة تستند إلى «خريطة مركاتورى» القديمة، وهى الخريطة التى تقوم عليها كل الخرائط الأخرى، حيث يمكن تصور مسقط الأرض فوق عمود تماس دائرة خط الاستواء، والذى فوقه يتم تكوير العالم المقطع بالمقص وفرده بعد ذلك بصورة متساوية. وداوائر خط الطول تظل متساوية الأبعاد، وخطوط التوازى تنثنى فى احتداب نحو القطبين، وهما فمّان مبتسمان دائمًا بصورة أكبر فى شمال الكرة الأرضية، وأكثر حزنًا دائمًا فى جنوبها. ولكن «خريطة مركاتورى» ليست تصورًا هندسيًا، دائما تم ابتكارها بناء على حساب دقيق وعلى مسائل رياضية متقنة إلى حد كبير. والاسم الثانى لهذه الخريطة هو «تصور».

وبعد طىّ الخريطة سوف يكونان قد انتهيا من مراجعة «روما»، ليستعدا لمراجعة «ميلانو» رغم بُعد المسافة بينهما. وسوف يلقيان بالتحية المختصرة المرسومة على جناح الطائرة، وهى I-DOFN؛ وهذا الاختصار يمكن تصوره هكذا:India

Twitter: @ketab_n

Delta Oscar Foxtrot Novembre، ومن ناحية أخرى قد يقيِّم البعض سلامة نطق هذه الصيغة.

وبعد ذلك سوف يختاران خط:Vpr do St[rex، وهى نقطة بعيدة عن «مونتى بيانكو»، وسوف يتم تغيير الاتجاه بقدر يسير يصل إلى تسع درجات نحو اليمين، وهى رحلة مستقيمة الخط تقريبًا، حتى وإن كانت لا تتبع على الإطلاق فى مسارها خطوط الطول، كما كان يحدث فى الماضى. وفوق Vor سيقومان بضبط الآلات من جديد مع الإحساس بالرضاء، لأنها تؤدى تحركات محسوبة فيما يتعلق بمفاتيح الضبط فى الوسط، تحت مقياس سرعة الرياح، والأفق الصناعى ومقياس الارتفاعات، وسوف يضبطان الآلة المتعددة الوظائف، والتى تحول الإشارات الإذاعية إلى تصوير بالرسم للموقف. وهناك سوف يصبح الاتجاه مرئيًا فى كل مرة مثل مؤشر رأس، عبارة عن شريط برتقالى اللون على اليمين، وهناك بالتحديد سوف ينظران إلى عينيهما ويتأكدان أن علامة الطائرة موازية دائمًا للشريط، وبالتالى كل شىء فى مساره.

ومن المؤكد أن ذلك يمكن أن يحدث أيضًا الآن وهنا أيضًا، مثلما يحدث دائمًا. تعطل بعض الأجهزة التى يمكن الحصول من

Twitter: @ketab_n

خلالها على إشارات غير مباشرة دون أن يدركا ذلك، طلبَ برج المراقبة بجنيف تخفيض الارتفاع للحفاظ على البعد الرأسى مع طائرة أخرى، سوء الأحوال الجوية بين سحب «مونتى بيانكو» التى تقترب منها الآن الطائرة، ومع سوء الأحوال الجوية يحدث انخفاض مفاجئ للضغط، ويصبح الجو فجأة أقل كثافة كما هى الحال عند الطيران على ارتفاع عالٍ، ويتأثر جهاز قياس الارتفاع بذلك، حيث إنه يعمل وفقًا للضغط الخارجى وليس الارتفاع، وقد يشير إلى أرقام تخيلية وغير واقعية. ويطير قائد الطائرة بين السحب والأمطار على ارتفاع أقل من 18500 قدم، والذي تشير إليه الخريطة هنا كحد أدنى للعبور فوق قمة «ونتى بيانكو» بمسافة طيبة. وسوف يمرقون من بين السحب فى سرعة فائقة، تصل إلى 800 كيلو متر فى الساعة بمقياس السرعة على الأرض، فالوقت لا يتجزأ مع أى حركة، وربما يلمحان فيما وراء الزجاج الأمامى للطائرات والمساحات التى تتحرك بسرعة فائقة، كتلة داكنة وبيضاء، وسوف تظل هذه الصورة المتوترة بسبب الأدرينالين فى عينيهما، إذا كان حقًا أن شبكية العين تحتفظ بآخر رؤية.

والأمر بالنسبة لنا ليس إلا دويًا قويًا، قويًا جدًا، بل قوى للغاية لدرجة أن الخسائر يمكن تعويضها أيضًا فى هذه المرة. لننظر. لا، لم نشاهد شيئًا، ولم نلمح ضوء الطائرة، وكنا جميعًا، بما فى

Twitter: @ketab_n

ذلـك النظارات، تتقدم إلى الأمـام بسرعة تصل إلى 490 ميلا فى الساعة، بينما كل شىء بالخارج وحولنا يبدو ساكنًا كالمعتاد.

وهنـاك وجهة نظر أخرى يجـب توضيحها وهـى؛ مسألة فنية تعقـب ما سبق، وهى أن صدامنا بشىء قريب يوصف ببساطة بأنه G 20 ، أو G 22، أى اثنان وعشرون ضعف جاذبيتنا الجسدية، ومـع هـذا الضغـط فـإن المساحـات بيـن الخلايا سـوف تتحول بصـورة ملموسة، وذلك بزيـادة أو بضغط المسافـات فى تحوُّل عـام للتلاصق، إلى استعـداد غير معروف، وفـى النهاية سوف يتعلـق الأمر بثورة صغيرة لمظهرى العام، فى بحر من القمصان والبيجامات والحقائب.

وعلى العكـس فإن «مونتـى بيانكو» كان بعيدًا جـدًا، وقد بلغ القائـد ومساعـده بـل وتجـاوزا: Chatillon ، Boulogne Vordi Rolampont، والآن ونحـن فوق بحر المانش يقومان بتعديـل ميل الطائرة الناجم عـن الرياح بدقـة، وأصبح كل شىء تحت السيطـرة النهائية فى اتجاه مطار «هيثـرو» بلندن. وسوف يتخـذ الاتجاه 289، وهو مدخل مثالـى لمن يأتى من هذا الجانب، ثـم سيضبطان آلة القيـادة على القراءة صفـر، عندما يكون الخط

Twitter: @ketab_n

الإحداثـى متعامدا تمامًا على الخـط الرأسى. وسوف ينظران إلى المؤشـرات ويستمعان إلى صوت «بيب بيب» المستمر وسيعرفان أنهما على طريـق الهبوط بصورة تامة، ودائمًـا إلى أسفل رويدًا رويدًا وبثبات أكثر إلـى أن وصلا إلى الممر، حيث تبدأ العلامة، وتتوقف عند المرور فوقها.

ثم هبطنا كالمعتاد: وَثَبْتُ إلى أعلى وتنفستُ الصعداء.

سرتُ خلـف الآخرين عبر أنبوبة الخروج مـن الطائرة، وأنا تحدونـى الحيرة لوجـودى فى مـكان مختلف عن مـكان السفر. عبرنـا فى سكون الأنابيب الصفراء والمضيئة بصورة غير أفقية، كما هو المعتـاد فى أى مكان آخر: فى المطار أو المدينة أو بالنسبة للضـوء ذاته. انتظرنـا فى ساحـة الحقائب، وأخذنـا ننظر جميعًا إلـى الحقيبـة المنسية التى كانـت تدور فوق سيـر الحقائب، وبعد لحظـات أصبحـت لا تُرَى مـع تدفق جديد للحقائـب. مررت من مكتب الجـوازات واتبعـت الإرشادات؛ ومـع كل منعطف كانت مجموعـة الركاب تتفرع وكأنهم شجـرة العائلة. بقيت ساكنًا فوق البساط المتحرك، وذلك بعـد الهبوط من فوق السلالم المتحركة؛ وواصلت النزول حتى بلغت مترو الأنفاق. وقفت أمام لوحة ذات خريطـة لخطوط المترو، وحددت طريقى عبر الجوانب اليسارية والجنوبية للوحة.

Twitter: @ketab_n

كان هنـاك رواق أخير يوجد بعد متـرو الأنفاق الذى يسير فى الهواء الطلق فى ضوء الغروب الخافت مع تعاقب اللونين الأخضر والبنى للضاحية والمنازل.

قمـت بتغيير المتـرو عند محطة «إرلز كـورت»، وسرت فى طابور جديد مع أناس عائدين من عملهم، وكان فى داخل الطابور فتيـان من الشواذ وزنجـى كان ينظر إلى بشـرة وجهه من خلال مـرآة صغيرة، وكان من الجلىّ أنـه لا يعنيه من أين قدمت أو من الأفضـل أن أقول إنه لم يهمه على الإطلاق أن أكون قد قدمت من أى مكان فى العالم.

وعندما وصلت إلى حديقة ويمبلـدون، نهضت ونزلت وبقيت لحظـة فوق رصيف المحطة المكشوفـة والمنخفضة، بين تلين من الأشجار ارتقيت مجموعة من السلالم، فإذا بى فى طريق هادئ به فيلات وبعض المتاجر. كان هـو الطريق الذى تسكن فيه. سألت إذا كان يوجد فندق؛ فنظر الفتى حوله كما لو كان عليه أن يلمحه من موضعه ثم قال: «لا. يجـب عليك الذهاب إلى مدينة ويمبلدون». عدت مرة أخرى إلى المحطة الصغيرة وقد اعترتنى الدهشة لبضع لحظـات، ومرت علىّ الأولى منها وكأنهـا ساعات، أمضيتها فى الهواء الطلق وفى ضوء النهار المتبقى.

Twitter: @ketab_n

كانت ويمبلدون هى المحطة التالية، حيث ينتهى خط مترو الأنفاق وحيث توجد الصدادات. أوقفت تاكسيًا وسألت السائق عن فندق، فسلك طريقًا به فيلات صغيرة بلا متاجر، ولكنهمشابه تمامًا لطريق ويمبلدون بارك، وربما يكون مشابهًا لأى طريق فى كل ضاحية لندنية تم تحديثها فى عهد الملكة فيكتوريا. وكان الفندق عبارة عن واحدة من الفيلات. قرعت الجرس، وقلت: «أود... إلخ»... سرت خلف فتاة عبر درجات سلم، ومررت أمام حجرة للجلوس كانت الإضاءة بها منخفضة، والتليفزيون مفتوحًا. ووصلنا إلى الدور المقصود، وفتحت الباب وتركتنى داخل حجرة كبيرة جدًا ومريحة، ولكن لم يكن لدىّ الوقت لأشاهدها. وعلى العكس أخرجت بعض الأشياء وخرجت من الحجرة، ودلفت إلى التواليت فوجدت به حوضًا للاستحمام بين جدران مطلية بطلاء لامع، فملأ حوض الاستحمام بالماء حتى حافته، وفكرت فى أن آخذ «حمامًا رائعًا».

بقيت مستلقيًا داخل حوض الاستحمام، وكان بخار الماء الدافئ يحيطنى من كل جانب، وكنت أتطلع إلى الرسومات التى تتكون على سقف الحمام من جراء تكثيف الماء الدافئ. ورأيت سلك الإضاءة الرقيق، فرفعت ذراعىّ وجذبته. فحل الظلام ثم الضوء. وجذبت السلك مرة أخرى، كانتتروقنى طقطقته المرنة،

Twitter: @ketab_n

بل والمرتبة جدًا بسبب طول السلك؛ كان يروقني الدفء المتناغم مع الظلام.

وعندما استيقظت كان الماء قد أصبح باردًا، وكان هناك انعكاس لضوء نيون يأتي دون أن أدري من أين. بحثت عن سلك الضوء في الفراغ وبحثت أيضًا عن ساعة اليد التي كنت قد تركتها على أرضية التواليت: كان الأمر فظيعًا. جففتُ جسدي في عجالة، وعدت إلى حجرتي، وارتديت قميصًا وبنطالاً نظيفين. كان صوت التليفزيون بالدور الأرضي لا يزال يُسمع. ودلفت إلى المطبخ وكانت الفتاة بداخله. لم تكن بالفعل فتاة، ولكنها كانت امرأة في ريعان شبابها من نوعية النساء اللاتي يبدين دائمًا كفتاة صغيرة: مع وجود انحناءة بظهرها النحيل بارز العظام، وخطين من التجاعيد على جانبي فمها. قلت لها: «هل يمكنني أن أتناول قليلا من اللبن؟»، فابتسمت هي، وجففت يديها وأحضرت اللبن من داخل الثلاجة وصبته داخل كوب كبير: فأشرت لها بأنه يكفي هذا. ربما كان عليّ أن أقول شيئًا آخر، ولكنني كنت متعبًا إلى حد كبير، بالإضافة إلى أنه من غير المؤكد أنهم لم يشعروا بالإغماءة التي تعرضت لها داخل حوض الاستحمام. وشرعت هكذا أسير أمام باب المطبخ، وكأنني كنت أريد أن أشاهد شيئًا بالخارج،

Twitter: @ketab_n

وعلى العكس ساقتنى قدماى، وأنا أحمل كوب اللبن، رويدًا رويدًا نحو الحجرة التى يوجد بها التليفزيون.

تبادلتُ التحية مع الفتى الجالس على المقعد، ثم شاهدنا فى صمت سباقات الخيول وانتصار «جوجو دانس»، وهو الاسم الذى كان المعلق يردده (مع عرض غطاء لرأس الجواد) بصورة هستيرية «ج- ج - دان». كانت تجعلنا نزداد حماسًا مع عدو الخيل.

لم يكن الفتى أيضًا شابًا بالفعل رغم شعره الأصفر الطويل، وأسلوبه المتحفِّظ. وقد نهض بعد قليل من الوقت، وألقى إلىّ بتحية هادئة وخرج.

عاد الفتى على الفور، وقال لى وهو يستند على الباب: «هل تعرف كيف تطفئ التليفزيون؟». قلت نعم، رغم أنه كان يمكننى أن أعلّمه ذلك وانصرف من الغرفة. وعلى العكس تابعتُ فى هدوء سباقات: «ليكستر، كينسنجتون، فينكلى، ست جيمس»، وأنا غير قادر على الاستمتاع بها أو النهوض ومغادرة المكان.

بقيتُ بالغرفة حتى انتهاء البرامج التليفزيونية، ثم أطفأت التليفزيون وكل الأضواء التى صادفتنى وأنا أصعد درجات السلم، وذلك من تلقاء ذاتى بعد أن طلب منى الفتى إغلاق التليفزيون.

Twitter: @ketab_n

وفـى داخل غرفتى فضلت أن أنـام على السرير الفردى، وبحثت داخل الدولاب عن «كوفرته» مـن الصوف وتركتها ملفوفة فوق «الكوفرتة» القطنية عند موضع قدمى.

وبعد فترة فتحتُ رواية تعج بنقاط توقف بين الكلمة والأخرى، وكانـت هذه النقاط التى تظهر بين الحين والآخر، أشبه بفراغ فى المعـدة أو كأننى أعبر قناة مائية بسيارة. ولم أكن لأعود إلى أسفل مـن فوق هذه العوائق، ولأول مرة يغالبنـى النعاس وأنا أقرأ هذا الكتاب فوق السرير.

واستيقظـتُ مع ضوء الشمس الدافئ الذى تسلل إلى الغرفة عبر غـلالات النافذة، وكان ينتابنـى إحساس بأننى قد حلمت بأحلام لا تمـت إلىّ بصلة، ولكنها أحلام خاصة بغرفة النوم تركها مئات من الحالمين السابقين. بقيـت مستلقيًا ونظرت فى ثبات وأنا قابع فوق السريـر إلى ضوء المصباح الذى لم أكـن قد رأيته مساء أمس. ثم نهضت واقفًا وتمددت بجسدى إلى أعلى لأزيح جانبًا ستارة النافذة الصغيرة حتى أتمكن من فتحها، وأطللتُ برأسى ونظرت بمحازاة أحجار القرميـد: شاهدت بالخارج بعض الحدائـق والمنازل، ثم وسـط مدينة ويمبلـدون وبعيدًا كان يُرى منحنـى النهر الكبير، ثم بعض مبانى المدينة وكانت تبدو ضبابية متناهية البعد.

Twitter: @ketab_n

نزلت إلى أسفل، وفصلت غلاية الشاى عن السلك الكهربائى، وقمت بغسلها فى الحوض، وكنت قلقًا بسبب القشور الجيرية التى كانت تخرج منها. وضعت الغلاية على المائدة الصغيرة وأعدت توصيل الفيشة الكهربائية الثلاثية ذات الحجم الكبير والتى تروقنى لقدرتها على التحمّل.

ورغم أننى اغتسلت وحلقت ذقنى وانتظرت حتى يغلى ماء الغلاية ووضعت كيس الشاى الصغير فى الكوب، وانتظرت حتى يتلوّن الماء بلون الشاى، ورغم أننى فى تلك الأثناء، وأنا أخشى دائمًا من تلك الأثناء، ارتديت ملابسى، فإن كل هذه الحركات التى كان يجب أن أقوم بها بقليل من التركيز، رغم عشقى لسرعة الحركة، فقد كانت بطيئة ليس بسبب البطء الذى يسود الصباح فحسب، ولكن كان بسبب رغبتى فى إبعاد فكرة راسخة فى ذهنى وهى؛ أننى«سأتعرف عليها اليوم». كانت الفكرة تنقسم إلى فكرتين متعارضتين بالنسبة للزمن: الأولى هى: «كيف سأتحمل الانتظار حتى الساعة الرابعة»، والثانية: «هل سيكون لدىّ وقت كاف حتى الرابعة لأستعد لهذه المقابلة؟». وعلى أية حال فإن الناتج يشكل لى بعض القلق اليسير.

Twitter: @ketab_n

كان الـدور الأرضى بأسفل يبدو خاويًـا على عروشه مثل بقية المنـزل. فلـم يكن هناك أحـد بحجـرة المعيشة أو فـى أى حجرة أخرى. ذهبتُ إلى المطبخ، وكانت النافذة التى أشبه بالباب والمطلة على الحديقـة مفتوحة، وكانوا هم هناك: الفتـاة ـ المرأة، والفتى ـ الرجل، وطفل بالفعل طفل كان يـركل الكرة عاليًا. اقتربت الفتاة من النافذة وقالت لى: «يمكنـك أن تتناول طعام الإفطار هناك فى حجرة الطعام». فقلت لها إننى لا أرغب فى تناول الطعام. فقالت هـى: «هل أنا متأكد مـن ذلك؟»، فقلت لها: «نعـم». ففتحت أحد أدراج المطبخ وأخرجت منـه مفتاحًا معلقًا فى دوبارة وقالت:«ها هو مفتاح البوابة، فلن تكون فى حاجة هكذا لأن تقرع الجرس».

وضعت المفتاح فى جيبى. وكانت تبدو لى مترددة، فابتسمت وقلت لها إن كل شىء سيسير على خير ما يرام، وتركتها وغادرت المكان. لـم أكن أعرف مـاذا أفعل، ولكن نظـرًا لوجود المفتاح معى، كان علىّ أن أذهب.

بالخارج، وعبر الطريق الذى يؤدى إلى محطة السكة الحديدية ووسـط المدينة، كنـت أشاهد السيارات بصـورة خاصة. وكانت هنـاك سيارات مـن ماركة «هيلمـان» و«هومبـر» أو «فوسلى» و«ديملـر» أو «أستـون مارتيـن»، وكانـت هذه هـى السيارات الموجودة هناك فقط: مستديرة وصلبة، سرت على مهل، واتبعتُ

Twitter: @ketab_n

اتجاهًا ملتويًـا من رصيف إلى آخر، وكنت أنتقـى السيارات التى تروقنـى أكثر. كانت سيـارات قديمة ونظيفـة ذات عجلات قوية ومتساويـة فى طلائها باللون الرمادى البـارز أو باللون الأخضر الزاهى. وهى سيـارات تعود إلى الخمسينيات أو الستينيات، وهو عصـر النضـوج لصناعـة السيارات: وذلـك بعد الأناقـة الشديدة للرفـارف الخارجية والرديـاتيرات الرأسيـة، وقبل ذلك الاهتمام الكبير بالشكل الخارجى وبالتشغيل اليسير المريح.

ومن الداخل، فإن فرش السيارة محميٌّ دائماً بشريط لاصق، حتـى وإن كان مقعد سيارة «جاجوار» مثل التى وقفت لأشاهدها. وهـى الأكثر جمالاً لأنها كانت سيارة متوسطة فى حجمها وسريعة ومريحـة، ومـع قيادتها يبقى غطـاء الموتور المتقـن فى صنعه، والرفارف كأساس ثابت للإحساس بالطريق الرمادى الممتد.

واصلت السيْر فوق الأرصفة المنخفضة وسط ألوان قليلة الكثافة بعضـ الشىء، ولكنها جميلة ومريحة، ثم بدأت الطلاءات تكتسب كثافتهـا الحقيقية، فقط فى الأمام وبالتحديـد فى الشارع الرئيسى: الأبيض للنوافذ والأسود للتاكسيات، والأصفر لليافطات، والأحمر للحافلات. استقلّيْت واحدة مـن هذه الحافلات لأعود إلى المنزل؛

Twitter: @ketab_n

وفى الحقيقة كنت أنظـر إليه على أنه «منزل» وليس «فندقًا»، فقد كنت أظن أيضًا رغم كل شيء، أننى الضيف الوحيد به.

صعـدت إلـى غرفتـى دون أن أقابـل أحـدًا، واستلقيتُ على السرير الذى قد تم ترتيبه، تصفحت مجموعة من الأوراق الخاصة بالملاحظـات، وكأننى أراجع مـادة قبل الامتحـان. وبالطبع لم أستفـد شيئًـا؛ وذلك لأننى شـردت بذهنى، فقد كنـت أتخيل منزل السيدة «بلومنتال» والسيـدة ذاتها. حاولت أن أستخلص أى شيء ممكن، بدءًا من قولها «حسنًا جدًا»، والذى أنهت به مكالمتها معى: فقد كان قولها «حسنًا جدًا» بطيئًا تشوبه بعض السخرية والتسامح، أو هكذا بدا لى.

استلقيتُ لفترة طويلة، وكنت أنظر إلى السماء الزرقاء من خلال النافـذة، فى البداية تخيلت كل مربع من النافذة على أنه حرف، ثم حاولت وأعـدت المحاولة، إلى أن تكونت أربـع كلمات متقاطعة على شـكل صليب يمكننى أن أقرأها أفقيًـا ورأسيًا. استغرق الأمر بعض الوقت، لأنه كان من الصعب الاحتفاظ فى الذاكرة بالكلمات التى تتناسـب مع بعضها دون أن أحذفها مـع غيرها. وفى النهاية انتابنـى الفزع؛ فقد كانت كل كلمة تحمل معنىً محددًا للموقف هنا.

Twitter: @ketab_n

وقـد تلقيتُ ذلك على أنه إشـارة: إشارة إلى أنه ليس من الطيب أن أبقى أكثر من ذلك فى هذه الغرفة.

ورغم الإطالـة فى إنجاز الأشياء، فقد تناولت الطعم ببطء مثل أمير هندى، وبذلت كل جهدى حتى لا ألحق بمترو الأنفاق، فإننى عندمـا نزلـت بمحطة «ويمبلدون بـارك» كان يتبقـى أمامى نحو النصف ساعة كاملة على الموعد.

أعدتُ التذكرة للزنجى، وارتقيتُ درجات السلم وخرجت إلى الطريق تحـت شمس الظهيـرة المشرقة. وبعد خطـوات قليلة بدا واضحًـا اتجاه الأرقام: ربما كان منزلها هنـاك بأعلى حيث توجد فيلات فقط، بعد المنحنى الذى يرتفع معه الطريق الصاعد ويختفى بين الأشجار.

شاهـدت فاترينات المحـلات، وكان يبدو لى أنـه بقطعة نقود أجنبيـة يمكن شراء كل شىء. ليس لأن الأرقام أصبحت مجردة، وإنما لأننى وعلى غير المتوقع أرى أهمية الأشياء، بصورة مختلفة عما اعتدت أن أراها إذا كانت مناسبة أم لا.

توقفت أمـام بعض الصور لإحدى الشـركات العقارية، حيث كانـت تعرض فيلات صغيـرة مشابهة تمامًا لتلـك الموجودة على

Twitter: @ketab_n

الطريق. تخيلت مداخلها المظلمة، ومداخنها المغلقة بأمر القانون، وأبوابها ونوافذها صعبة الفتح ورائحة التراب والرطوبة المنتشرة بداخلها، نتيجة للخشب والموكيت المستخدم بدلاً من الرخام.

وحتى محطة السكة الحديد الصغيرة، فى الجزء الظاهر منها، ما هى إلا فيلا صغيرة بمداخنها وتاريخ تأسيسها وهو عام 1889. من يعرف، فربما مترو الأنفاق هو الذى يصنع المدينة، وصنعها فى الوقت المناسب.

تركت المحلات وشرعت أصعد بين حدائق وبائكات فى سكون جمٍّ. وصلت إلى منحنى الطريق وأصبح منزلها قريبًا. جلست على مقعد تم وضعه هنا بناء على رغبة «الدرمان س. بلاك»، وهو فاعل خير بمدينة «ويمبلدون»، كما تقول اللافتة النحاسية. أسندت مرفقى على ركبتىّ ووضعت وجهى بين يدى؛ وبقيت متوقفًا بصورة غريبة، دون أن أرى تقريبًا المنزل المواجه والواضح أمامى والمركب الشراعية التى تظهر من خلال الجانب المفتوح... لم أكن متأكدًا من أن الوصول مبكرًا عن الموعد هو شكل من أشكال العظمة، وكأن القدوم قبل الموعد دليل على الاهتمام باللقاء.

Twitter: @ketab_n

خطوت بعد ذلك الأمتار الأخيرة، وأنا أعتقد أنه بعد قليل سوف أكـون عند بـاب المنزل، وأنـه بعد برهة سوف أقـرع الجرس. ووجدتنى بالفعل أقرع الجرس.

بقيـت للحظة، غير طويلة، ثم دلفت إلـى المنزل، وتحدثنا فى الأمور الأولى، وكنـت أدوّن ملاحظاتى عند بعض التفاصيل فى سكون، حتى نُكوّن فكرة سريعة كل منا عن الآخر، وكل ما تخيلته فـى تلك الفكرة وحتى ثانية ماضية تلائم ببساطة داخل الواقع، مع النزعة الانتهازية المعتادة للحس.

ربمـا كان هذا التـلاؤم للخطى، أو الإحساس بوصولى حتى هنـا، أو ربما ضوء الحجرة الرمادى اللؤلؤى فقط، هو الذى أثار بداخلى الإحساس ببعض الرفاهية. وقد تحدثت فى كل شىء دون أن أتبـع خيطًا منطقيًا أو رواية مرتبة، ولكن تحدثت بطريقة كانت تطفو فيها الأشياء من تلقاء ذاتها، أو على الأقل كان يبدو لى ذلك. كانـت هى ترد من حين لآخر «نعـم»، وعندما انتهيت من حديثى قالـت فى هدوء جـم: «لقد كنت معه فى مدينـة تريستة»، ولم يكن ليعرف ذلك أحد. كان ذلك قبل وفاته بقليل. «هناك لا أستطيع أن أسير لوجود خياطة أمى» أو«هنا لا، لوجود المدرسة»؛ كان هناك دائمًا شـىء ما، وكان هو يخشى أن يذكره، ثـم أراد بعد ذلك أن

Twitter: @ketab_n

يتنـاول طعام الغداء فى مطعم قريب من جدول مائى. كان الغداء عبـارة عن دجاجة مشويـة، ولكننى لم أكن أهتـم كثيرًا بالطعام، وسألتنـى صاحبـة المطعم: «بأى نوع من الحطـب تريد أن نطهو الدجاجـة؟». كان هو يعرف كل شـىء عن أنواع الحطب، أما أنا فلا أستطيع التمييز بينه؛ فقلت «ماهوجنى» ولم يكن رأيًا موفقًا».

كان شعرهـا أزرق اللـون تقريبًا ومثبتًا مـن الجانبين بمشطين صغيريـن، وكانـت ترتدى عقـدًا من اللؤلـؤ فوق رقبـة كنزتها الصوفيـة الواهيـة، ودبوسًـا ذا جناح، وكان يبدو لـى أنها تحمل وجهين مختلفين من الأمام ومـن الجانب؛ أحدهما منسجم الملامح والآخـر نحيل، وحـذر للغاية. وربما يرجع ذلـك لأن جزءًا من أنفهـا ومن فمها مثلث الشكل، أو ربما بسبب نظارتها المرتفعة إلى أعلـى، كما هى الحـال فى الخمسينيات، وعدسـات أشبه بفقاعات ملوّنـة. كانت ذات وجـه يستعصى على المـرء، أو على الأقل لم أفلـح فى تكوين فكرة سريعة عنه، لذلك ركزت على صوتها الذى كان فـى الواقـع منخفضًا وعميقًـا. جلسنا فى ركـن من الحجرة، كانت هى تجلس على الأريكة وأنا على مقعد بجوارها.

كان يمكننى أن أشاهـد الغرفة جيدًا وأن أرى من خلف «الباب النافـذة» المنظر الخارجى الهادئ المتمثل فـى الغابة والسماء فقط

Twitter: @ketab_n

قلـت لها: «لكن لماذا كانت سرية تلك الرحلة؟». فأشارت بصورة مبهمة: «لا أدرى، فقد فر من تلك المدينة، حيث كانت هناك الكثير مـن الأقاويل». نظرت إلىّ وسألتنى فى صوت رقيق: «هل كانوا لا يزالـون يتحدثون عـن زيجات؟». قلت: «نعـم، وظلوا لفترة متأثرين».

ابتسمت قائلـة: «إنه لأمر غريب .... لقد ذهـب الناس إليه، وكانوا يقولون: نحن بالفعل تعساء»، وكان هو يرد قائلاً: «إذا كان هناك شىء لا يقوى على الاستمرار فإنه من الأفضل إيقافه».

بقيت صامتًـا. كان كل شىء يبدو بسيطًـا وواضحًا فى معناه، ولـم أسمعها تقول لى إن الأمور ربما كانت أكثر تعقيدًا. وعلى أية حال، فلم يكن الأمر مهمًا بالنسبة لى.

«فى السنوات الأخيـرة من حياته كان يرغب بشدة فى الزواج منـى، وكنت أقول له: لن تغفر لى ذلك أبـدًا ... ربما كان يشعر بقرب النهاية. وقد ظل متأثـرًا عندما علم من خلال الإبر الصينية أن ضغطه مرتفع. وقد شعر بالوحدة منذ تلك اللحظة».

شرعت أبحث فى ذهنى عن كلمات مناسبة ثم قلت لها: «إن كل تجاربنا من أجل الحفاظ على توازننا دون مساعدات تنتهى عند حد المرض أو المنزل».

Twitter: @ketab_n

أشـارت بالموافقة قائلـة: «نعم، فنحـن النساء معتـادات على حـدوث تغيرات بأجسادنا، لذا فنحن نفزع بصورة أقل منكم. فهو على سبيـل المثال، عندما بدأ ينزف دمًا مـن أنفه أصابه الرعب. وبعد ذلـك كان عليه أن يترك منزله. أتعلم أننى أنا التى عثرت له على ذلك المنزل؟». فقلت لها إننى لم أكن أعرف ذلك.

«لقـد سكنتُ بها قبل أن آتِ إلى لندن بسبب القوانين العنصرية. ثم عملت هنا خادمة، وأعتقد أن أحدًا كان عنده خادمة مثلى. كنت أعمل فى عيادة محلل نفسـى معتوه تمامًا. ذات يوم منعنى من أن أفتح باب العيادة للمرضى لأنهم بدأوا يروننى فى أحلامهم، وكان ذلـك أمرًا خطيرًا لدرجة أننى فقدت وظيفتـى. وعلى آية حال فقد رأيـت، قبل أن أرحـل، أن الأختين، إحداهمـا عمياء والأخرى خيّاطـة، اللتين كانتا تستأجران ذلك المنزل ملائمتان له، وبالفعل مكـث هناك دائمًا. وعندما أضطر أنالترك المكان، كان ذلك أمرًا فظيعًـا. فكان علىّ أن أبحث له عن منـزل آخر؛ وقد وجدنا غرفة رائعة الجمال، ذات حديقـة مخصصة بالكامل له. وقد أحضر هو إلـى هناك حقائبه الممتلئة بـالأوراق والكتب، ولكنه لم ينم بها ليلة واحدة».

أردت أن أختصـر الأحداث التى ترويها، فقلت لها: «نعم، هذا أعرفـه». توقفت هى ثم نظـرت إلىّ، ثم واصلـت حديثها بعد أن

Twitter: @ketab_n

اختصرت القليل منه: «بعد أن مات حضر شابان ليساعدانى فى حمل الحقائب. كانت السماء تمطر وكان الليل قد حل وأنا أعانى من ضعف بالبصر، ونحن فى وسط الطريق، ومع المطر المنهمر، أطلت من داخل إحدى الحقائب ورقة صغيرة. فأخذتها ووضعتها داخل جيبى؛ واطلعت عليها فقط عندما عدت إلى الفندق، وكان مكتوبا بداخلها وصيته... إنه أمر لن أنساه أبدًا...». أنصتُّ إليها؛ ولكن تارة كنت أتابع القصة التى ترويها، وتارة أخرى كنت أحاول أن أفهم الإيقاع الداخلى الذى كانت تتحدث به. وكنت أحاول أن أجد حدًا معتدلاً ما بين الإنصات إليها وعدم المتابعة لها.

قالت هى: «أنا لا أفلح فى نسيان شىء، فليست لدىّ ذاكرة انتقائية، لذا يجب علىّ أن أحتفظ بكل شىء فى ذاكرتى».

سكتت هى لفترة وجيزة جدًا، كانت تتأملنى قليلاً لترى ما إذا كنت قد فهمت ما قالته. ثم سألتنى قائلة: «هل يروقك الخيال العلمى؟»، ابتسمت وقلت لها: نعم يروقنى.

بدت هى أكثر هدوءًا، وكأنها تفتح مجالا آخر محايدًا للحديث. «أنا أحب «براد بيرى» بصورة خاصة». ولكنى أتذكر حكاية جميلة للغاية، لا أدرى لمن... فقد دُعى شاب للعشاء من اثنين من الأصدقاء، وبعد أن انتهى من تناول العشاء قالا له: هل أنت

Twitter: @ketab_n

مستعد؟ فأجاب بنعم. هل معك ماكينة التصوير الفوتوغرافية؟ وهل معك المسجل؟ نعم. وهل معك شيء لتكتب؟ نعم. إذن ابدأ. فقال هو: حسناً، ولكن القهوة؟ لم أتناول القهوة. فقالا له: ستتناولها عندما تعود. وما إن يبرق الفلاش، وهو ضوء خاطف، حتى يعود مرة أخرى. وكان ذلك أشبه بآلاف السنين فى المستقبل. وكانا يقولان له: إذن ماذا سيحدث؟ وكان يقول: لا أعلم شيئًا. ألا تتذكر شيئًا؟ لا. نظر إلى الورق: لم يكتب شيئًا. ولا شيء تم تسجيله على شريط المسجل، فقالا له: حسنًا، حاول أن تتذكر أى شيء. صمت قليلاً ثم قال نعم، الآن أتذكر أنه قد طرح أمامى الاختبار: إذا كنت أريد أن أذكر أم لا . . . ؟

أخذت تتابع تأثير القصة بطرف عينيها وهى تبتسم قليلاً. ابتسمت أنا أيضًا، ولكن كنت أتساءل بينى وبين نفسى إذا ما كنت سأستطيع أن أصمد أمام روايتها. والمشكلة الأخرى هى؛ أنها كانت تقطع حالة السكون بإضافة شيء ضرورى، وكان يبدو لى أنه من الصعب التغاضى عن ذلك. وكنت أعتقد أن الأمر سيتوقف عن هذا الحد. ليس لأن الرواية أشبه بروايات الخيال العلمى؛ فكان يمكننى أن أروى واحدة مثلها أنا أيضًا، وبينما كنت أستمع لها استسلمت وشرعت أبحث عن رواية من بين الروايات التى أعرفها. لا، بل إنها تتوقف على النية ذاتها لمن يروى، فالرواية

Twitter: @ketab_n

تقوم على نبرة الراوى وقـوة الأحداث والمواقف، وكل هذا يتيح حالة تلقٍ ناعمة كما يحدث معى، وأنا أجلس على هذا المقعد.

وبعـد ذلك، وعندما كنا نتناول الشاى والحلوى قالت لى أيضًا: إنـك لم تخبرنى بعـد بشىء عن ذاتك. وأيقنـت أننى لا أعرف أن أروى فى لحظة، أو أن أعطىَ فكرة بصورة مباشرة. وكان لدىّ الانطباع بأنى سوف أضطر للحفـاظ على هذا الفرق، وأن أكتفىَ بتوجيـه الأسئلة التـى أجّلتها حتى تلـك اللحظة، وهـى أسئلة هكذا إجمالية ورتيبة، ولكنها فى النهاية وبصورة شخصية، أسئلتى.

كنت أراقـب السكين وهو يغوص داخـل التورتة، وكانت هى تقطّـع بصورة متساويـة تمامًا مـع مراعاة الأجـزاء البارزة من التورتة، ثم رفعت الشرائح فقط بعد أن فصلتها عن بعضها، بحيث تكون سليمـة حتى أطرافها. كانت تبدو لـى لحظة مواتية، وحتى وإن كنـت لم أتعلم أن أكـرر أحاديثى بسعة صدر، فقلت فى نفسى إننى لا يروقنى أن أقوم بدوْر المعلم الروحانى أو المستشار السرِّى لشخصية مهمة أو قارئ لكتب غريبة، لذا قلت لها: «المسألة ليست أن كل هذا لا يوجد، ولكنه تصور، ولذلك فأنا لا أعلم». والتقطت أنفاسـى وشرعت أوضّح لها أننـى لا أكترث حتى بمؤلف الأعمال المثالية والتى ينتهى بها الأمـر داخل روايات تعج بالتوضيحات، حيـث تمر هكـذا الأخلاقيات والسلوكيات جنبًـا إلى جنب من أجل

Twitter: @ketab_n

تنوير العقل . . . فقلت: «ما أحرص عليه هو نقطة ربما تتشابك فيها معرفة الذات ومعرفة الكتابة. فأى شخص يكتب فإنه يتخيل ذاته بصورة أو بأخرى. فى حالته على العكس، وتحديًا فى هذه النقطة كانت هناك حالة صد ورفض وصمت. إننى أود أن أفهم لماذا ؟»

توقفت قليلاً وقد اعتراني بعض التوتر، ولكن رغبتى فى مواصلة حديثى لم تكن قد فترتْ بعد.

كانت هى تمسك شريحة التورتة بصورة متزنة فوق السكين، ثم تنقلها إلى طبقها. بعد ذلك كانت تضع الغطاء مرة أخرى ببطء فوق الحلوى. ثم تلملم بقايا التورتة بأصابعها. وفى النهاية كانت تستند بيدها فوق المنضدة الصغيرة.

وعندما بدا لها أن كل شىء أصبح مرتبًا، نظرت إلىّ قائلة: «لنرى أولاً مسألة معرفة العيش. . . لقد ورث ثروة وبدّدها على الفور. فقد كان، ذات مساء، على مائدة العشاء مع بعض السيدات، وكان يقول إنه أجمل يوم فى حياتى، لأننى أنفق آخر قرش فى ميراثى».

كان ليعيش فى حياته هكذا، لا أدرى كيف، ولم يكن بمقدور أحد أن يعرف ذلك أبدًا. ربما لم يكن يدرك ما الطريقة الصحيحة للبقاء فى هذا العالم، أعنى أنه لم يكن يبلغ ذلك من خلال التفكير،

Twitter: @ketab_n

فقد كان يعيش كل لحظة فى حياته إما فى سعادة ، أو إحباط أو ثورات غضب فظيعة. وقد كان لديه أصدقاؤه الشباب ، وكان شديد القلق عليهم. فقد كانت حياته تقوم على الأشخاص الآخرين ، على ما يستطيع أن يفهمه عنهم ، وعلى ما يستطيع أن يجعلهم يفهمونه. وعلى أية حال ، أعتقد أنه نجح فى أن يعيش بطريقة صحيحة ، ولكن لم يمت كذلك . . . ففى الشهور الأخيرة من عمره أصبح . . . شخصًا آخر . . . شخصًا ضل طريقه. وأصبح لا يحب أحدًا قط ، ولا يهمه أى شىء فى الحياة . . .»

كانت تتحدث دون أن تنظر إلىّ ، ولكن جانب وجهها الدقيق والمتيقظ أو طرف عينها ، والذى كانت ترانى من خلاله ، لم يفقدا أى رد فعل دقيق أظهره. وقد حاولت أن أظل ساكنًا تمامًا حتى بداخلى. وانتظرت أن تمر الحكاية مثل أولئك الذين يُدْفَنون فى الغابات المشتعلة تاركين النيران تعبر من فوقهم.

واصلتْ حديثها فى بطء قائلة: «كانت لديه وساوس: مرة بشأن الطعام اليابانى ، وقد كنت أقول له: توجد رائحة كريهة جدًا تنبعث من الثوم واللوز». وكان يرد قائلاً: «إنه طعام السامورای»؛ ومرة أخرى كانت الإبر الصينية ، فقد كان يرفض أى نوع آخر من الأدوية. وقبل وفاته بيومين تحدث معى عبر الهاتف قائلاً:

Twitter: @ketab_n

«لـم أعد أذهب عنـد الطبيب فقد شفيت». فقلت لـه: «أوه، حسنًا. سوف أتصـل بك بعد ذلك». ثم اتصلت به مـرة أخرى وقلت له: «إن ما روَته لى كذب». فرد قائلاً: «أنا لا أهدر كل هذه المكالمات لأقول لك أكاذيب».

وكلما استمرت فى روايتهـا، كلما انحنت بصدرها نحو الداخل مـع استرخاء ذراعيها. ثم التفتت قليلاً تجاهى وقالت: «هل تعرف ماذا يعنى أن تحس أين يكون شخص فى لحظة محددة؟»

فقلـت: «لا أعـرف، ربما». وفـى الواقع لم أكـن أعرف إذا كنـت أعرف ذلك؛ أو الأفضل أن أقول لـم أكن أعرف ماذا كانت تقصـد بالتحديد. ابتسمت هى، فقد أدركتْ جيـدًا مدى حيرتى؛ ثم أصدرت إشـارة وكأنها تريد أن تقول ماذا ستعرض علىّ فى ذلك الوقـت. «حسنًا، هنا بأسفل توجد بحيـرة، وفى عصر ذلك اليوم ذهبـتُ إلى هناك. وقـد سلكتُ، لـدى عودتى، طريقًـا مختصرًا يمر بيـن الأشجار. كان يومًـا رائعًا للغاية، وكنـت خالية البال. وفجـأة شعرتُ بشىء غريـب فوق كتفىّ، لم يكـن ألمًا ولكن كان إلحاحًا فظيعًـا؛ وكان هناك هاجس يتردد فـى أذنى قائلاً: «لا أحد يعرف بدقة فـى أى وقت مات»، أنا أعرف ذلك جيدًا. فعندما كنا نستقـل السيارة، كنت أجلس بالأمام وهو بالخلف. كان يضع يديه

Twitter: @ketab_n

علـى كتفى، وبين الحين والآخر كنـت أقول له: «إن قبضتك قوية للغاية». وفى عصر ذلك اليوم شعرت بنفس الشىء».

خيّـم الصمـت علينا. كانت هـى تلف منديلاً مـن الورق حول إصبعها، وكانت تضغطـه بشدة عند كل استدارة حتى لا يترك أى أثر. وعندما نزعت المنديل كان إصبعها يكتسى باللون البنفسجى. شرعـتْ تتأمله. ثـم أخفت المنديل داخل كم كنزتهـا. كانت أشعر بفـراغ داخلى وبالضياع بين صورة غير مرتبة، حبّات من اللوز أو حقائـب ملقاة هنا وهنـاك تثير الارتباك مثل سـر غير مصانٍ. كنت فى حاجـة إلى شىء معاصر، حتى وإن كانت أشياء الغرفة، فنظرت إلى آلـة البيانو العمودية، والأباجـورات والكتب وشىء أشبه بجهاز تسجيل ضخم، بل أضخم من كونه مسجلا.

قلـت لها فى نهاية الأمر: «معـذرة، لماذا تروين لى كل هذا؟» لم ترد على الفور، والتقطت أنفاسها لتتحدث، ثم هزت رأسها، ثم تنهدت، وانتظرتُ أنا فى صمت.

ثم قالت: «لأننى أعتقد أنه عـن طريق الحكايات فقط ستستطيع الفهـم». ابتسمـت لها وقلـت: «لا، ولماذا؟ فهنـاك طرق أخرى عديـدة». هزت رأسهـا مرة أخـرى ولكن برفـق؛ وتوقفت عن

Twitter: @ketab_n

مواصلـة الحديث. ثم قالت ، بعـد ذلك ، وبصوت خافت ومحدد: «إننـى أروى لك هذه الحكايات لأننى لا أستطيع أن أكتبها لك. . . لقد حاولت آلاف المرات، ولكن كنت أمزق الورق فورًا. . . فأنا ألمّـع أيضًا حذائـى قبل أن أشرع فى الكتابـة، أو أعد الطعام وهو شىء أبغضـه. ولكن كان يبدو لى دائمًا أنـه يقف خلفى، ولو علم أحـد رأيه فيمـا كان يكتب، فإنه تنتابه حالة مـن الخوف من أن ما يكتبه لن يستحق أى شىء».

اشرأبيـتُ قليلاً وشرعت أستغل الفرصـة، ثم سألتها دن تفكير: «من أجل هذا لم يكتب؟»

رفعت كتفيها قائلة: «لا أدرى. . . ما رأيك أنت؟»

قلت: «لا أعرف، ليس لـدىّ أى رأى. . . لكن الرأى الأعلى فيما يتعلـق بالكتابة يكون مِلْكَ من قرر عدم الكتابة. إنه رأى قاسٍ جدًا».

«ربما. . . ولكنه أمر حقيقـى، كما كان يرى، وهو؛ أن هناك الكثيـر من الكتـب، وأنه مـن غير المجـدى إضافة كتـب أخرى إليهـا. فلو لم تكن هناك كتب كثيرة، فإن الناس ربما قد تفكر بنفس تفكيره».

Twitter: @ketab_n

بحثتُ عـن أقل عدد مـن الكلمات لأرد عليهـا، وأوضحت لها لمـاذا لا أتفق مع هذا الرأى. تحدثـت معها عن إشاراته وتحركاته وبالأخص طريقة سيره. فرجعت نحو الخلف وابتسمت قائلة: «أنا أقـول هكذا، لكن بعد ذلك أجدنى أبحث عـن الكتب... وأقرأ أى شىء. أقـرأ بلا نظـارات، ولاسيما عندما لا يرانـى أحد، لأننى أضطـر أن أبقى ووجهـى ملتصقًا بالكتـاب. بل أخشـى أيضًا أن أجرح أنفى... أو أضع كتابًا منطوقًا داخل المسجل، ولكن الشىء رفيـع الثقافة الـذى ينتجونه وهو، ثلاثة رجـال فى مركب، فهو دائمًا شيق ...».

خيّـم الصمت مرة أخـرى علينا، فكنت أنظر إلـى الموكيت أو إلـى حذائـى وكأن من ذلك الاتجـاه قد يأتى توضيـح. قالت هى: «انتظـر»... ونهضـت ببطء وذهبـت عند المدخـل. كان يوجد بنطال فاتح اللون، تحـت الجاكت الصوف، وكان مثبتًا من أسفل بشريـط من المطـاط مثل متزحلقـى الجليد. ثم عـادت بعد قليل. ووضعت علـى المائدة الصغيرة، بجـوار الحلوى، مجموعة من الصـور، وقالت: «لقـد كنت قد أعددتها من أجلـك...». لم أرد بكلمة واحدة، فقد تملكنى شعور بالاستسلام التام.

أخذت هى الصورة الأولى ونظرت إليها عن كثب، وهى تضع النظارات على وجهها ثم قالت: «...آه نعم، إنه قصر مارى دى

Twitter: @ketab_n

ركولتس . . . كنا نذهب إليه دائمًا ، ولكن لم نر أبدًا بوند . فقد كان نزيلاً بمصحة الأمراض العقلية هناك بمدينة ميرانو ، وكان يستقبل فقط واحدة من أحفاده التى كانت تذهب إليه لتقرأ عليه (بنوكيوه) . . . » واقتربت بالصورة رويدًا رويدًا نحوى .

لا أدرى ، لم أكن أود أن أتظاهر ، ثم إننى لم أكن فى حاجة لأن أتعرض للعذاب الذى شعرت به فى المرة السابقة «بتريستة» . قلبت الصورة على وجهها ووضعتها على المائدة الصغيرة برفق ، وقلت لها: «سيدتى أنا لا أستطيع أن أرى الصور . وأنا آسف لذلك» . قلت ذلك بأكبر قدر من الهدوء ، ومع ذلك كانت هناك لحظة من الارتباك فخفضت رأسها بعناية وقالت: «نعم أستطيع أن أفهم ذلك» . . . وانتابنى انطباع لبرهة بأن ذلك ممكن .

أعدت لها الصورة ، فوضعتها فى الاتجاه الصحيح وسط مجموعة الصور ، ثم دفعت بها إلى أبعد مكان فوق مائدة أخرى صغيرة ، حيث تبعثرت الصور وكأنها أوراق لا ضرر منها . ثم أصدرت إشارة تحمل معنى الصبر قائلة: « . . . على أية حال ، فى ذلك القصر كانت هناك دجاجة تبيض وتصيح فى عصر كل يوم . وكان هو يسخر منها ويقول: ها هى ذا تعلن للجميع عن بيضة أخرى أصلية فى قصر بوند . . . »

Twitter: @ketab_n

لم أتمالك نفسى فرحتُ أبتسم لما سمعته منها، وبادلتنى هى الابتسامة فى استرخاء كبير. وقالت: «عندما وافته المنية، قلت لأعز أصدقائه:أود أن أنسى أشياء كثيرة». فرد الصديق قائلاً: «لا ينبغى عليك ذلك، لأن حياته هكذا كما كانت، هى أعظم أعماله...»

ولم أستطع أن أمنع نفسى من أن أرجع هذه الفكرة على الفور إلى «كاترين هيبورن». ولكننى قلت فقط: «لا، إن الأمر ليس كذلك...»، وربما قلت هذه العبارة ببطء شديد أو بينى وبين نفسى، حيث إنها واصلت حديثها وهى غارقة فى التفكير: «منذ زمن بعيد كنا قد تحدثنا عن الكيفية التى يود أن يموت عليها المرء، فقال هو إنه يروقه الموت فى الهواء الطلق وتمنى ولو لم يعثر على جثمانه أحد... حتى فى الموت كان يرغب فى أن لا يشعر به أحد...»

تحجّرت فى مكانى، ولم أكن أعرف فيما أفكر، ربما فى السعادة لأننى وصلت فى الوقت المناسب، ولأننى نجحت فى مهمتى رغم المخاطرة بين انطباعاتى وأيضًا انطباعاتها، تاركًا الأمر يصبح ملكًا عامًا متغيرًا، حيًا... عدت إلى الوراء وقلت لها: «نعم، كل شىء عنده كان يتجه نحو التجاهل ربما كان هناك خوف أيضًا...»

Twitter: @ketab_n

فقالت هى فى هدوء: «أنا متأكدة من ذلك».

فسألتهـا لماذا. فكّرت ثم قالت: «لقد كان يعلم بمدى تأثيره على الآخرين ومدى اعتمادهم عليه. فلو كان قد كتب شيئًا غير ذى قيمة كبيـرة، لكان لذلـك تأثير سيئ عليهـم... إن خوفه كان... كما يقال أن يخيب آمالهم؟».

يقال : «يخذلهم» هل تعتقد أنه كان كذلك؟»

«نعـم، مـا نقرأه عنـه وما نعرفه عنـه، لا يتطابـق...، لقد كان يفهم الأشخاصـ بصورة مختلفة عما اعتدنـا أن نقصده بكلمة «يفهم». لم يكن يحاول أن يتخيل كيف تكون الشخصية الأخرى، فقد كان هو تلك الشخصية».

وعندمـا اكتشـف أن ذلك هو مكانـه فى الحياة، لـم يستطع أن يكتـب أبـدًا. لقـد أدرك أيـن كانت تكمـن قوته، كانـت تكمن فى الأشخاص...».

خيّـم السكون علـى المكان حتـى بالخارج خلـف النافذة، وقد اعترتنى رجفة فسألتنـى: «هل تشعر بالبرد؟»، فقلت لها لا. رغم ذلك نهضـت لتغلق النافذة. قالت: «لقد وضعت هـذه الليلة الغطاء

Twitter: @ketab_n

الكهربائـى. وعندمـا ألمسـه لا أجـده دافئًا، ومع هـذا فهو يجعل المكان دافئًا جدًا».

قالت: انظر إلى طبـق التورتة: «إنك لم تتناول منه شيئًا . . .» ابتسمت لها دون أن أرد. كنت أفكر فى «خوف» أو «يخذل» هكذا فى خطوط عديدة متفرقة ومختلفة مثل خطوط الانشطار النووى.

جلست مرة أخـرى وابتسمت قائلة: «. . . توجد رواية لـ«براد بيرى» الجميلة جدًا تُسمى «صيف بيكاسو». هل قرأتها؟»

قلت لها: «لا ، لم أقرأها» قلت ذلك وأنا أضحك تقريبًا. ضحكت هـى أيضًا . . . «رجل وامرأة، زوج وزوجة، أمريكيان بالطبع ذهبـا لقضاء الإجـازة فى مكان على البحر، بيـن فرنسا وإسبانيا. وقـد أصر الـزوج على الذهـاب إلى هناك، لأنـه كان يعرف أن هنـاك كان يعيشـ «بيكاسو» وأنـه أحيانًا كان ينـزل نحو الشاطئ . لـم يكن يحـدوه الأمل فى رؤيتـه، ولكنه كان يريـد على الأقل أن يستنشـق الهواء الذى كان يستنشقـه «بيكاسو» قالت له زوجته بعـد تناول طعام الغـداء: سأذهب لأستريح قليـلاً، هل تأتى معى؟ فقـال لها لا، سأقوم بالتنـزه، وأتجه نحو البحـر، كان يسير عبر الشاطئ، وأحس بوجود رجـل آخر يسير أمامه. رآه من الخلف: كان رجـلاً عجـوزًا برونـزى اللون وشبـه عار ورأسـه صلعاء

Twitter: @ketab_n

تمامًـا، وكان يمسك فى يده عصـا وبين الحين والآخر كان ينحنى فـوق الرمال ويرسم شيئًا. سار هو خلفـه وأخذ يتابع الرسومات؛ كانـت رسومات لأسماك ونباتات البحر. ثم ابتعد «بيكاسو» وظل يتضاءل إلى أن توارى. جلس الرجل بجوار الرسومات وانتظر. وظل ينتظر إلى أن محت أمواج الشاطئ كل شيء وعادت الرمال ملساء من جديد».

كانت ملامح وجهها، بعد كل حكاية، تتناغم مع أى حدث قد يقع بعد ذلك. وقد غمرنى تقريبًا إحساس بالسعادة والحبور. فضحكت وقلت لها إنها حكاية جميلة.

ثـم فعلت كل ما يجب فعله، مثل النظر إلى الساعة وإلى الضوء بالخارج لأشير إلى أننى سوف أغادر المكان.

وعنـد الباب قلـت لها: «قـد أعود غـدًا»، فردت قائلـة: «أوه بالتأكيد». نظرت إلى العصا البيضاء المسندة إلى قطعة صغيرة من الأثـاث. فابتسمت هى وقالت: «أن يكون المرء أعمى أمر مختلف عـن أن يكون أصمًـا. فالصمُّ مرتابـون ويعتقـدون أن الآخرين يتقوَّلـون عليهم. أمـا العُمْىُ فهم، علـى العكس، ممتلئـون بالثقة ويسرفون فى المزاح».

Twitter: @ketab_n

نزلت من أعلى التل، وكان الجو عليلاً والألوان زاهية، ولكننى لم أكن أعبأ بهذا، فقد كنت أفكر فى إمكانية أخذ قسط من الراحة حتى المساء أوحتى اليوم التالى أو لمتى لا أدرى. كان يبدو لى فى ذلك الوقت أن لدىّ سببًا لبقائى هناك، ومن ثم يجب علىّ أن أستغل فترات الراحة، وأن لدىّ دافعًا أكيدًا لتنقلاتى.

يمكننى أن أستقل مترو الأنفاق بهدف «العودة» مثل الآخرين، أو أن أنتظر فى مكان بلا حراك خالىَ البال بالمحطة الهادئة، أو أن أقرأ جريدة تحمل عناوين باللون الأحمر وأنا داخل القطار، أو أقرأ بعض الدعايات الصغيرة عن كيفية تنسيق المرء لحديقته بنفسه.

وعندما وصلت إلى «ويمبلدون» وتخطيت الميدان الممتلئ بالناس، لا سيما حول المحلات العامة، فضلتُ أن أسير على قدمىّ حتى المنزل. وسرت وسط فيلات صغيرة عن اليسار وعن اليمين، وكان بداخل هذه الفيلات كل شىء أجده ضروريًا وطبيعيًا، بالنسبة لى كان ربما يمارس بطريقة ضرورية وطبيعية. وواصلت سيرى هكذا مسرعًا.

Twitter: @ketab_n

كنت أسمع خلفى، فى البداية، رنين جرس كهربائى مستمرًا، ثم صوتًا شديدًا لموتور ضخم، وفى النهاية تقدمت أمامى سيارة المطافئ واتجهت إلى شارع جانبى هناك بأسفل. ولمحت سحابة من الدخان الكثيف الذى بلغ قمة الأشجار، لذا شرعت أجرى.

وما إن وصلت إلى ناصية الطريق، حتى عدت أسير بخطوات سريعة بعض الشىء. وعند تقاطع الطريق كانت تحدث أشياء مختلفة ومتزامنة، ولكن فى سكون، كان كل شىء يحدث من خلال تبادل الإشارات بين رجال يرتدون سراويل صفراء اللون وسترات سوداء. وقد قفز اثنان منهم من فوق حوض نباتات، وجريا وهما يحملان خرطومًا نحو اليسار. وأخذ واحد منهم يتصفح كتاب خرائط المدينة إلى أن عثر على الطريق، ثم أشار إلى موضع الحنفية العمومية. ثم انحنى إلى الأرض وفتح البالوعة ونظر بداخلها ثم قام بتركيب الخرطوم. وقام آخر، وكان يقف بجوار سيارة المطافئ، بالضغط على محبس السرعة. وأخيرًا وبعد هذه التحركات الصامتة انطلق الماء إلى أعلى تجاه النافذة المفتوحة المظلمة بالدور الثانى.

كان صوت المكبر ينتشر فى كل الأرجاء، وكان يأمر بإخلاء العمارة الصغيرة، وكانت بناء من الإسمنت منخفض الارتفاع

Twitter: @ketab_n

وعريضًا. وبعد برهة كان هناك بالطريق فريقان: أحدهما للسكان، وكان يقف فى الساحة الخالية أمام المنزل، وفريق للجيران، يقف على الرصيف المواجه، وتفصل بينهما مضخة الإطفاء، وهى لب الحديث. ودون أن يرانى أحد تركت فريق الجيران واتجهت لأقف بين فريق السكان.

كان السكون يخيم على المكان تمامًا، وكنا نسمع صوت تأجج النيران ونشم رائحة البلاستيك المحترق، ونشاهد النافذة السوداء وألسنة اللهب المنبعثة منها، وشلالات الماء المنهمرة إلى أسفل. وكنا نسمع من إذاعة سيارات الإطفاء بلاغات عن عناوين جديدة وحالات طوارئ أخرى، ولولا أننا كنا نقف هنا فى هذا المكان لأمكننا أن نقدم يد العون لأصحاب هذه البلاغات. وفى النهاية كنا نقف جميعًا تحت الماء المنهمر.

برز من بين فريق الجيران فتى يحمل فى يده آلة تصوير فوتوغرافية؛ وكان يلتقط بها صورًا على فترات متباعدة بعد أن يحدد الإطار المراد تصويره. وكان أيضًا لفريق الجيران مركز يقفون بجواره: فقد كانت هناك امرأة عجوز كسا الدخان وجهها بالسواد، فقدموا لها مقعدًا. ووقفوا، ليس حولها، ولكن بجوارها وخلفها، وكأنهم قد دعوا لشىء من المرأة ذاتها. وقد أخبرنى

Twitter: @ketab_n

رجـل يقف وذراعيـه متشابكتين فى صوت خافت قائـلاً: «الخطأ ليس خطأها». لم أرد عليه بكلمة واحدة، وكان هو يلح قائلاً: «هذه المرة حقًا ليس لها أى شأن بذلك» . فقلت له : «حسنًا، لا بأس».

ثم طل من النافذة أحد جنود المطافئ وأعطى إشارة نهائية فعاد كل شىء إلى الحـد الأدنى: موتور سيـارة المطافئ وضغط الماء والأفراد. وتم طىّ كل المعـدات وسار فريق السكان. وبقيت أن بلا حاجز فى مواجهة المرأة العجوز الجالسة على المقعد.

وكانت هى تنظـر إلى نقطة فاصلة بينى وبين النافذة، ثم قالت: «الآن يجب علىّ أن أرتب كل شىء مرة أخرى، هل تفهم؟»

عندمـا عدتُ إلى الفندق فى وقت متأخـر، كانت كل المصابيح بالمطعم مضـاءة بما فى ذلك الأباجورات الموضوعة على الموائد الصغيرة الخالية، وذلك لوجود اثنين من النزلاء. تناولت الطعام دون أن أكتـرث بشىء؛ فكنت غارقًا فى أفـكارى، وفى المشاهد التى عشتها منذ بضع ساعات مضت.

تبقى لدىّ منذ عصـر ذاك اليوم شعور بالانتماء لما حدث أو ما قد يحدث؛ ومن المستحيل إعطاء هذا الشعور إطارًا محددًا، وربما مـن أجل هذا كنت أشعر بالانفصال عن بقية الأشياء، هنا، وكأننى صورة فوق منظر طبيعى.

Twitter: @ketab_n

وبعد ذلك أصبحت قلقًا كالعادة، عندما أجلس مع الآخرين، وليس لدىّ جهاز التحكم فى القنوات؛ فأنا لا أستطيع أن أغيّرها، وأن أرى مشاهد المطاردة تاركاً الأحداث الداخلية والأسباب، وأن أرى الكثير من الأفلام معًا، فيما يشبه حكاية مُجْمَلة مع اكتراثنا فقط بتعاقب الحركة والسكون.

ذهبتُ إلى غرفتى بالدور الأعلى. وبدلاً من أن ألقى بجسدى على السرير، كما كنت أود، قمت بعمل كل الاستعدادات الليلية. وهذه الاستعدادات ما هى إلا علم يتعلمه المرء من النساء؛ حتى وإن كن مُجْهَدات، فإنهن يقمن بإزالة الماكياج ويعتنين بأنفسهن ويتناولن كوبًا من الماء ويخترن لأنفسهن كتابًا لقراءته قبل النوم. وأحيانًا، بعد ذلك، يتحدثن فى الظلام ويصبح من الصعب الاستغراق فى النوم.

من يدرى متى أكون عفريتًا، ويكون علىّ أن أبث الرعب فى قلوب الزائرين. فأنا فى حاجة إلى صرخة مرعبة مدمرة. شرعت أركز وألتقط أنفاسى؛ وأنا مستيقظ وصرخت. فى البداية كنت أشعر بالسعادة، لأننى أفلحت فى ذلك، ثم تراجعت بسبب صوتى المبحوح المخيف.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

استيقظتُ من النوم وذراعاى متشابكتين فوق صدرى، فى وضع اتخذه جسدى من تلقاء ذاته، وعاجلاً أو آجلاً سيقوم شخص آخر بإعطائه هذا الوضع. وقد جعلتنى هذه الفكرة أنجز أمورى فى عجالة؛ فبعد عشرين دقيقة رأيتنى بالحديقة مستلقيًا وفى يدىّ كتاب، على مقعد من القماش لم أفلح فى ضبطه عند الحد الأوسط بين الاستلقاء والجلوس فى اعتدال.

كان يعد الطعام داخل المطبخ عامل الفندق، وكان يرقص على أنغام الموسيقى المنبعثة من الراديو، وعندما أدرك أننى أشاهده، قام بعمل خطوة بهلوانية. أعد الفتى الشاى لكلينا، وبينما كنا نحتسيه خضنا، بصورة غير متوقعة، حديث حول بلاد العالم. قال هو: «لم يعد لأى بلد معنى. غير أن كل شىء هنا معد لكى يستطيع أن يعيش المرء وسط عدة ملايين من البشر فى نفس المدينة». لم أجب بشىء: كنت أشاهد المقلايات الكثيرة الموضوعة فوق المواقد. سألته إذا كان ينتظر حضور نزلاء جدد. فأجاب قائلاً: «لا. لقد أعددت أيضًا وجبة الغداء، وبذلك أصبح حرًا».

كانت السماء مبهجة، بلا أهمية. كان المهم هو أن أقرأ فى الهواء الطلق، وكنت أرفع بصرى بين الحين والآخر لأشاهد الأشجار

Twitter: @ketab_n

مـن الجانب، وموائد المنزل البيضاء والطريق. كان لون الضوء فوق الصفحات أو مشاهد البيئة من حولى تنساب داخل الذاكرة مع الرواية، وكان ذلك يفيد فى إحداث حالة من الثبات أثناء القراءة. أو على الأقل أود أن يكون الأمر كذلك الآن، وأنا أقرأ هذه القصة التـى كُتبت بعد الحرب مباشرة، وفيها يوجـد هو كشخصية، هكذا واقعيـة، رغم أنـه كان يُدعى «أنس»، والـذى كان يتحدث أيضًا عن «علامة قابيل فى وسط جبينه» كما كان يفعل القبطان ذاته.

تابعـت قصة الشـاب «سباستيانـو» و«أنس» فـى روما، إبان الاحتـلال الألمانى؛ وهنـاك العديد مـن العقـد العاطفية وحالات حـب تقترب وتبتعد عـن الخطوط الدرامية للروايـة. وتصور لنا القصـة «أنـس» و«هو شاب فـى الأربعين من عمـره» وهو أكثر حكمـة وانعزالاً عن الآخريـن، ولكنه مدرك تمامًـا لشئونهم؛ أما «سبستيانو» فهو يروى يومًا بعد يوم ما يحدث فى الواقع. وبالقصة مناقشـات جوهرية، ولكنها لا تروقنـى، بيد أنه أمر مؤلم الاعتقاد بأنها كانت حقيقية أو من المحتمل أنها كانت مهمة.

وربما يجـب على المرء الاهتمام بالقصـص التى لا تتعلق به. وقـد بدا لى واضحًا أن الألمـان بعيدون عن الأفلام، وذلك عندما توقفـت أمـام جبّانة حربية. وكانـت تلك الجبّانة سهـلاً مهجورًا. ودلفت بداخلها، فلم أجد بها أحدًا حتى الحارس. سرت بين المقابر

Twitter: @ketab_n

ورحت أقـرأ الأسماء؛ وكان يبدو لى أمرًا غيـر عادى أنه بالنسبة لعائـلات «هابتيمان» و«أوبركور بورال» المدفونة تحت أمتاعهم أن تبقى بالفعل هكـذا، وأنهم قد نظروا إليها هكذا حتى آخر لحظة: والخـوف يمـلأ قلوبهم وتحدوهم فكـرة حقيقية أنهـم هناك؛ موتى بالفعـل. كان «سباستيانو» يكتب أيضًا ما يحـدث بالفعل، ثم انتقل إلى الأشخاص، مع نهاية الكتاب وقرأ على «أنس» ذلك. وعندما كان يقرأ عليه الأجزاء التى يظهر فيها «أنس»، كان الأخير ينفجر فى الضحك. كان يضحك ملء شدقيه، ولكنه كان متوترًا، وعندما بلغ ضحكة أشده سأله «سباستيانـو»: «ما الأمر؟»، فقال «أنس»: «لا عليك فأنـا أستمتع بما تقول». وعندمـا انتهى من القراءة... ظل «أنس» صامتًا، ثم ضحك مرة أخرى بصوت مرتفع. ثم قال لى: كيف كتبت هذه الأشيـاء، وقال إن الوصف كان فظيعًا، وإن كل هذا لم يكن حقيقيًا. «وأصر» «أنس» على أن كل ما قلته غث، وأورد أسبابـه: كان هناك سببان على الأقل: أحدهما هو أننى كنت أعرف أن «ماورا» تحبك».

شاهدت الفتى الذى خرج من المطبخ وجلس على مقعد ممدود، وأخذ يهـذب شعره المسترسـل على جبينه، ثم يحـاول أن يرفعه إلـى أعلى وذلك بالنفخ فيه. وبعد قليـل حضرت أيضًا الفتاة ومعها الطفـل، والـذى لا أدرى ماذا يصنع طوال النهـار. كان ثلاثتهم يلعبون فى هـدوء. كانوا يضعون شريط كاسيت فارغًا بالمسجل،

Twitter: @ketab_n

ويحاولان أن يجعلا الطفل يتكلم، وعندما كانا يجعلانه يستمع مرة أخرى لعوائه كان يشعر بالغيرة.

كنت أقرأ فى ذلك الوقت الحوارات فقط. كانت المناقشة بشأن «ماورا» تتصاعد. قال «أنس»: «ولكن ياولدى العزيز، أنا رجل فى الأربعين من عمرى، وتعرضت لمآزق كثيرة فى حياتى أكثر مما تتخيل. ومع هذا فأنا أمتلك من الحصافة ما يجعلنى أنأى بنفسى من الوقوع فى خطأ مثل هذا». وكانا تارة يتشاجران وتارة يضحكان؛ وقال «أنس» فى شجن: «إنه أمر مُهين تقريبًا. فأنا على أية حال عجوز غيور وسيئ الظن. ولم أكن أبدًا هكذا، أقسم لك على ذلك». ورجا «سباستيانو» أن يقرأ عليه مرة أخرى، فقرأ «سباستيانو»، فاعترض هو مرة ثانية قائلاً: «ينبغى علىّ أن أكتب مذكرة ضد هذا». فاقترح عليه «سباستيانو» أن يضيف فصلاً بعنوان «تصويب الأخطاء». وقال «أنس»: «يجب أن تصحح يا «سباستيانو». فأنا لست هكذا». فدافع «سباستيانو» عن نفسه قائلاً: «لا أحد هكذا، ربما»...

... فقال «أنس»: أوه، لا أعتقد أن الأمر يتطلب مجهودًا شاقًا ليدرك الآخرون أنه أنا».

فغمز له قائلاً: «يا عزيزى «أنس» إن جريمتى لا تصل إلى هذا الحد. فمن الجلِىّ أننى سأغيّر الأسماء».

Twitter: @ketab_n

توقفت عن القراءة، وأخذت أشاهد الأشياء من حولى، الثلاثة أشخاص قاطنى الفندق، والفندق من خلفهم، والسيارات التى تسير على الطريق والأشجار والحديقة بما فيها والطائرة البيضاء التى كانت تتوارى فى الأفق. وبينما أطوى الكتاب، نظرتُ إلى عبارة أخيرة يقول فيها «أنس» وهو يضحك: «مسكين يا «سباستيانو»، فيرد عليه «سباستيانو» قبل أن يخلد إلى النوم وهو ينظر إلى الحائط، وقد خيّم الظلام على المكان: «كلنا مساكين».

وفى حجرتى، بعد ذلك، ولكى أستعد للموعد، كنت أكتب بين الفينة والأخرى كلمة ثم أضع حولها هالة. وفى النهاية ومع امتلاء الورقة بهذه الدوائر، يصبح الأمر مستعصيًا على الفهم، كما هى الحال دائمًا عندما يصبح لدىّ عدد من الكلمات، ولا أستطيع أن أفلح فى الوصول إلى شىء من خلال بناء عبارة ذات معنى.

وكانت الأحداث تبدو أحيانًا خالية من التسلسل: استلقيتُ على السرير ثم نهضت، وذهبت عند النافذة ولكن لم أنظر إلى الخارج، وشرعت أرتّب المائدة الصغيرة وانشغلت، بعد ذلك، ببعض الأشياء داخل حجرتى، فقد خلى أثاث الغرفة أيضًا من بريقه الهادئ.

كنت أتحرك باستمرار دون أن أستطيع أن ألتقط فكرة من مجموعة أفكار. وعند المائدة بحثت مرة أخرى عن موضع

Twitter: @ketab_n

للعمـل. ربما هذا الموضع بالفعل: إنهـا المرة الأولى التى يبدو لى فيهـا أن كل ما حملنى إلى هنا «شىء يجب عمله»، أى بمثابة عائق يجعلنـى أبقى فى هذه الحجرة، وفى هذا الفندق وفى هذه المقاطعة وأصفهم. ومكثت هكـذا، لا أدرى كم من الوقت، وأنا أستند على ظهر المقعد محاولاً أن أندمج مع المنظر الطبيعى فيما وراء النافذة.

وبعد فترة مـن الزمن، ودون أن أقرر ذلـك، رأيتنى بجوار الهاتـف عند مدخل الفندق بأسفل؛ وبحثت عن رقم هاتف المطار، وطلبت السفر فى المساء. انتظرت الرد، وكنت بين الحين والآخر أتنهـد حتى يدركوا أننى مازلـت أنتظر، ثم جاء الرد بصوت سيدة يقول: «تم تأكيد الحجز».

إن فكرة الوصول إلى النهاية جعلت كل شىء يتحرك، فشرعت أملأ حقيبتى مـرة أخرى ووضعت كل شـىء خاص بالحجرة فى مكانه حتى تصبـح كما كانت مرة أخرى، ومعـدة لاستقبال نزيل آخـر دون أن يكون بها شىءيتعلق بـى. وطلب الفتى والفتاة منى أن أتـرك لهما عنوانى. وقدما لى فـى المقابل بطاقة رسمية تحمل اسم الفندق والشعار الخاص به.

وقرأنا البطاقات، ونحن ندرك إلـى أين سينتهى بها الأمر، لا نعـرف، ووضع الفتى عنوانى فى جيْب قميصه، ثم نظر إلىّ مرة

Twitter: @ketab_n

أخـرى. فقلت: «حسنًـا...» فابتسم هو وقـال: «يجب أن أخرج وسأصطحبك حتى مترو الأنفاق».

جلسـت على اليسـار بعيدًا عن عجلـة القيـادة والدوّاسات، لا أدرى كيـف أجلس، وكان الطريـق يبدو لـى غريبًـا، وكأننى خرجـت إلى طريق غير مألوف. وقد قلت هذا للفتى وأنا أضحك. فـرد قائلاً: «ضع حزام الأمان لأنـه إجبارى». نقل الفتى حقيبتى أمـام المحطة، وأشـار إلىّ يطلب شيئًا. فنظـرتُ إليه وانتظرت. ولكنه تردد وابتسم إلىّ ثم غادر المكان.

وعبر الطريـق الصاعد بـ «ويمبلدون بـارك» كانت علامات الأمس ـ المقعد الحجرى، والمنحنى، والفيلا والمركب الشراعى. تبدو مختلفة، وغير محـددة. تركت لنفسى العنان لأفكر قليلاً، ثم واصلت السيـر مستنشقًا عبيـر الأشجار، أو متخيـلاً الحياة داخل البيوت. وقد مررت على بيتها دون أن أدرك هذا.

وبعد المنحنـى، كان الطريق ينزل بى نحو وادٍ فسيح به حديقة كبيـرة من الأعشـاب المقلّمـة والأشجار وبحيـرة صناعية. وفى نهاية الطريق كانت هناك ناطحات سحاب وفيلات صغيرة منعزلة وملاعب مكشوفة؛ وفى الوسط يقـف فجأة وفى هدوء أشبه بالحلم إستاد التنس، «إستاد ويمبلـدون». أيقنت فقط فى تلك اللحظة أين

Twitter: @ketab_n

أنـا . شاهدت المبنـى المنخفض هناك بأسفل بسقفـه المستدير: فهو أشبـه بصهريـج رخو تتجمّع فيـه أهمية المنظـر الطبيعى، وحيث تسوقنى قدماى إلى هناك أنا أيضًا.

كان المدخل الوحيد المفتوح هو بوابة المتحف.

توقفـت هكذا لمشاهدة نموذج لملعـب أفريقى منقسم إلى نصفين مـن خلال شبكـة، وأيضًا من خـلال خط الاستـواء بحيث تسافر الكرة من منتصف الأرضـ إلى المنتصف الآخر. وشاهدت أيضًا غرفـة خلع الملابس القديمة، حيث توجد ياقة قميص قوية وجاكت كإشارة وهمية إلى قدوم شخص من بعيد ليرتديهما.

كان هناك أيضًا مضرب التنس غير المكتمل بداخل ورشة غير حقيقية، وكان هذا الأمر يجعلنى أعتقد بوجود نجّار.

كانت كل هذه الأشياء مقسمة وفقًا للأهمية بطريقة محيّرة، مثل الصور. فبعض لاعبـى التنس يقفون وأذرعهم وذقونهم مرفوعة إلى أعلـى وأيديهم مفتوحة من دون الكـرة، وكانوا يبدون وكأن هنـاك علاقة خاصة لهم مـع السماء. بعد ذلك تـم تشغيل أسطوانة إخباريـة ممتلئـة بالخشخشـة؛ وكان مـن العسير تبيـان الأسماء، فبحثـت عن طريـق للخـروج. وبداخل الممـرات وعند درجات السلـم البيضـاء كان يتملكنى إحساس بوجود لـون مختلف فوقى،

Twitter: @ketab_n

وبعد آخـر درجة سلم، اتجهت نحو الإستاد الخالى، وجلست على طرف أحد المدرجات.

لـم أكـن أدرى مـا إذا كان العشـب أو اللون الأخضـر القاتم المتجانسـ مع الطلاء هما ما يجعلان مساحة الإستاد ضيقة. وربما يكـون السبب فى ذلك هى المظلة. ففـى أعلى كانت حافتها محددة ولونها أخضر مائلا لـلأزرق، ومن أسفل كانت تتدلى مثل القبعة فتبتلـع المشاهدين داخل الظلام الـذى يشاهدون من خلاله. أما ما يتـرك مكشوفًا، وأعنى المقاعد هنـاك بأسفل، فهى تصطف حول الملعب مثل المقاعد حول مائدة الطعام.

لـم أنتبه تقريبًا للأولاد الثلاثة الذين جلسـوا هنا بجوارى بعيدًا عـن الحدائق. كنت أمعن النظر مثلهـم فى الملعب الخاوى، حيث تركت الكـرة علامة لرقم 8 الأفقى بين لاعـب وآخر، كعلامة لا نهائيـة، والأمـر ما هو إلا خـداع ضد التحرك الدائـم مع إطلاق الضربات، والتى بدورها تقوم بعمليات الصد.

الآن وبالنظرة المعتـادة يمكننى أن أميّز الاتجاهات التى بذاتها تشير إلى الفرق بيـن الأشياء: لوحة الأرقام وترتيب المدرجات، وذلك المكان المرتفع قليلاً والذى لا يمكن أن يكون إلا المقصورة الملكية؛ وقد جلس الأولاد هناك، ربما كانوا يريدون إثبات وجهة

Twitter: @ketab_n

نظـر . ثم ساروا بعد ذلك عند حافة الملعب حتى بلغوا درجات سلم النزول ثم اختفوا من أمامى .

إن روعـة المكان لم تقدم لى يـد العون ، بل على العكس ، ففى الواقع بعد قليل سوف تكون لدىّ آخر فرصة ، وينبغى علىّ أن أجد شيئًـا يحملنى فجأة إلى السبب الذى من أجله لم يكتب ، ولكن ليست لـدىّ إلا أفكار مرتبكة وإحساس بالبعد عـن ذلك السؤال ، وكأننى أبتعد عن دوامة مـن الذكاء أو العقاب أو السخرية ، كمقابل لذلك ، أو الحـزن المتجمـد أو لا أدرى . لـم تكن تطرأ علـى ذهنى أفكار وإنمـا عبارات فقـط مثل: «كان يجب أن أبدأ مـن هناك ، من تلك النقطـة . الآن الأمر أصبح مختلفًـا» . أو: «ربما الإجابة تكمن فى أننـى سافرت ، وأننى قابلت بعضـ الأفراد أو أننى هنا . وأننى فى النهايـة عندى . . . ؟» أو: «الكتابة ليست مهمة ولكن لا يمكن عمل شىء آخر» .

أى عبـارة كانت ضد ذلك المشهد . كنت أود فقط أن أرى وأن أسمع ، ولأول مـرة أراه غير جميل ، بالفعـل الآن ، ولا أستطيع أن أصـوّر منظرًا كليًا أو جزئيًا يهمنـى أنا فقط . أخذت كراسة من الحقيبة لأرسم؛ ومع تحركى لمحت شكلا أسود اللون على اليمين . فعـدت ببصـرى تلقائيًا إلـى الخلـف: كان يوجد علـى المقعد فيما

Twitter: @ketab_n

وراء المدرجات حزام يتدلى على الأرض، وعلبة ذات بروز، وبداخلها كان يوجد بها شيء واحد فقط فى العالم: آلة تصوير.

ربما احمررْت خجلاً، لست أدرى، هل بسبب ما اعترانى من شك أو انفعال أو ماذا. وشعرت وكأن دمى يُمْتَص داخل نقطة خارج جسدى، وبعد ذلك يتدفق إلى أسفل بحذر رويدًا رويدًا حتى يبدو اللون الوحيد المستقل هنا متصلا مع بقية الواقع. ومع تجوّلى بالإستاد لم أر أحدًا.

كانت أوّل فكرة تخطر على بالى هى؛ أن آخذ آلة التصوير الفوتوغرافية، وألتقط الصور التى تروقنى وأذهب بها. ثم غيّرت رأيى فأصبح كالتالى: ألتقط الصور وأنهى شريط الفيلم وأضعه فى جيبى، وأسلّم الآلة الفوتوغرافية لقاطع التذاكر بالمتحف، ثم انتهى بىَ الأمر بصورة أكثر اعتدالاً، فقلت فى نفسى: ربما يبيعون بمكتبة المتحف، فضلاً عن التذكارات والكنزات، شرائط أفلام، فيمكننى أن أستعمل واحدًا منها وأترك لقاطع التذاكر آلة التصوير وشريط الفيلم الأصلى. فكرت هكذا، ولكننى نظرت إلى آلة التصوير بطرف عينى وكأننى أخشى من أن أرتد عن ذلك.

وفضلاً عن ذلك فربما يفاجئنى مالك آلة التصوير، وهى فى يدى مع ذهابى إلى المتحف أو فى أى اتجاه آخر يتطلب التصوير،

Twitter: @ketab_n

وخـارج المتحف أيضًا. ولو تركت آلـة التصوير فى مكانها عندما أذهـب لشـراء شريط فيلم، فقـد يأتى زائر آخر وينفـذ هذه الفكرة التلقائيـة البربريـة. لم أفعـل شيئًا، وانتظـرتُ كالعـادة أن تسير الأمور، وانشغلت فى تلك الأثناء بانتقاء بعض الصور.

كنـت أسمع خلفى ضوضـاء رقيقة، لم ألتفـت لذلك بل نظرت بطـرف عينى وسمعت وقـع خطوات ينتهى عنـد درجات السلم، وكأن هناك قدمًا تقف بالطابق الأعلى، ثم ظلّت ساكنة فى مكانها. ربمـا كان هنـاك شخصـ يشاهـد الإستـاد أو ينظر إلـى ظهرى الثابـت من الخلف، أو ربما وقف يتأمـل المقاعد واللون الأخضر والسماوى اللذين يشكلان خلفية للإستاد. كان ذلك الشخص يحرّك عينيه فقط وهو واقف فى مكانه. وبعد قليل بدأت أسمع مرة أخرى وقْع نعليـه الرقيق فوق السطح الإسمنتى. فى تلك اللحظة كان كل شىء بجانبى وفى متناول يدى، فحاولت أن أدْخِل أكبر قدر ممكن حتى ثنايا بنطالى المخملى، كانـت تقف فوق حذائى الأصفر، فى سكون ثم تحركـت ببطء بين المقاعد من ذلـك الاتجاه، ثم سكنت مرة أخرى لفترة طويلة، وأخيرًا جلست ووضعت ساقًا على ساق فى هدوء بعيدًا عن آلة التصوير.

ظللنا لوقت طويل نراقب ملعب التنس وكأنه شىء مهم، ومكثنا نفكـر فى علاقة كل منا بحافظة آلـة التصوير. فعلاقتى أنا بها، مع وجـود المدرجات فى الوسط، واللامبـالاة غير المفهومة، ليست

Twitter: @ketab_n

قويـة. وعلاقته هو أيضًا ـ لم يلمس آلة التصوير ـ غير محددة. فلا أحـد منا، رغم وجود الآخر، قد رفـع بصره عن الجانبين الأيسر والأيمن، أو عن مقعد الحكـم أو عن شريط الفيلم الممهد، وكأنهم أصبحوا فجأة شيئًا مهمًا.

حلّـت فتـرة من السكـون الطويـل والعميـق لم أشعـر خلالها بالوقـت، حيـث شردت بذهنى. وعـدتُ إلى الواقـع مرة أخرى عندما انزلقت حافظة آلة التصوير برفق، بعيدًا عنى بعد جذبها من حزامها الصغير. لم ينظر هو إليهـا، ووضع إصبعى الإبهام على الجزء البارز من الحافظة، ونزع الجلد عنها ليرى مدى صلاحيتها بالداخـل. ثم مكث وآلة التصويـر الفوتوغرافية فى حجره منتظرًا لشىء، لا أدرى ما هو.

ابتعد ذلـك الشخص فى هـدوء دون أن يستعمل درجات السلم القريبة. ظل يتجوّل بنصف الإستاد تقريبًا وهو ينظر إلى الأثاثات، ثم توقـف لبرهـة بالقرب مـن كابينـة المعلقين. وعندمـا تجاوز الملعـب، وتأملته بدقة بجاكته المصنـوع من جلد الرنّة، ونظارته الداكنـة، أيقنت أنه لم يكن واحدًا من الفتيـان الذين كانوا يجلسون من قبل.

صعدت مرة أخرى التـل، وعبرت من خلال الحديقة العامة. وكنـت أستدير من حين لآخـر لأشاهد الـوادى والإستاد الهادئين المسالمين.

Twitter: @ketab_n

كانت الحفر بداخل الأعشاب تبدو وكأنها جحر لحيوان صغير دقيق، ثم أدركت أن هذه الحفر من أجل لعبة الجولف. وتابعت هذه الحفر دون الاكتراث بأى شىء آخر إلى أن وصلت إلى ساحة بلا أشجار وبلا أى شىء، تقف تقريبًا أمام السياج الخشبى الداكن للمنزل. وأيقنت أننى لا أعرف على الإطلاق ماذا أقول. ووصلت عند البوابة، وأنا أشعر بغبطة رقيقة لا أجد تفسيرًا لها.

قالت هى: «كيف حالك؟»، فابتسمت وقلت لها: «بخير». وتحدثنا عن الإنجليز وعن الحدائق، واستغلينا لحظات اللقاء الأولى بأكبر قدر ممكن. لست أدرى ما إذا كانت أناقة ردائها الصوف، أو إبريق الشاى والحلوى المعدة فوق المائدة، هى ما جعلت كل شىء أكثر يسرًا وبلا أهمية، إلى أن ثنت رأسها بصورة لافتة للنظر قائلة: «هذه الليلة نمت قليلاً. وقد فكرت فيما قلناه بالأمس. ووصلت إلى استنتاج». فأجبت قائلا: «حسنا»، فى الواقع أنا أكثر توترًا، وأشعر بالذنب لأننى نمت فى هدوء دون أن أفكر فى شىء.

«هذا هو الاستنتاج؛ عندما تعرفت إليه لم يخطر بذهنى أنه كاتب. واعتقدت أن لديه اتجاهين: أحدهما أن يجعل الناس تعرف ما كان يبدو مهما بالنسبة له، والآخر، هناك مرحلة فى الحياة يجب على المرء أن يأخذ فيها قرارًا رئيسيًا. فى هذه المرحلة تتغيّر

Twitter: @ketab_n

الأمور، أو يجب أن تتغير ولا يمكن الاستمرار مع إجراء تعديلات إضافيـة وذاتية. فكثير من الأشخاص قد التقوا به بعد أن بلغوا هذه المرحلـة، وقد ساعدهم هو على التغيير أو علـى أخذ القرار. وأنا أعتقد أن هنا تكمن متعته ويكمن عمله العظيم. ولا شيء آخر سوى ذلك».

لـم أرد عليهـا. فحتى الأمس كنـت أحـاول أن أرسم بصعوبة صـورة دقيقة هكذا ومحـددة. مكثت صامتًا بصـورة مختلفة، فقد كنـت أنتظر لحظة مواتية كى أنتقـل إلى حديث آخر، أو أستفيد من الإشارة الوحيدة التى قالتها عن طريقته فى المشى أو فى الضحك، حتـى أُكَوّنَ فكرتى عن رأيه فى الكتابة. الآن أصغى إليها دون أن أستغرق وقتًـا ودون أن تعترينى أفكار موازية لما تقوله. وكأننى لست فى حاجة إلى كل إشارة ترد على ذهنى.

قالت هـى: «الشـيء الأكثر غرابـة هـو؛ أن الأشخاص كانوا مقتنعيـن بأنهم قد نجحوا فى ذلك بمفردهـم. وذات مرة قرأت فى بعضـ المقالات: «من المستحيل أن نقول فيما كان يفكر هو» كيف يكون مـن المستحيل؟ فكل فرد ربما يقـول: «هذه كانت مشكلتى، وبسبـب هـذه المشكلة ذهبت إليـه واستطعت أن أحلهـا معه»... فحين توجد مشكلة حقيقية ويتم حلها، ربما تبدو وكأنها لم تكن أبدًا. أو ربمـا كان ذلك آخر جزئية تضفـى صفة الكمال على مساعدته. هل تعتقد أن شيئًا مثل هذا يجعل المرء يكتب؟»

Twitter: @ketab_n

أسندت على ذراعىّ المقعـد، وابتسمت قائلاً: «لا أدرى، فكل هـذا الآن لم تعد له أهميـة». رفعت هى حاجبيهـا فى حذر، وفى شـىء من السخريـة. وقالت بصـوت خافت: «تخيـل! . . .». . نظرتُ إليهـا وابتسمتُ مرة أخرى كشخصـ غريب عن المكان. وقلـت لها: «لا، فشـىء مثل هـذا يتعارض مع الكتابـة». وربما كانـت مسألـة تباين، لا أدرى . ففى الكتب نجـد أفعالا وطرقًا فى المعيشـة وعلاقات مع الأشياء وصورًا للتعاملات أو التفكير تكون لدى المرء من قبل ثم يعيد استغلالها مرة أخرى، دون أن يدرى، فـى الحياة مثـل كل شىء. وربمـا لا تكون هذه الأشيـاء هى التى نعـوّل عليهـا. فالتعامل الحقيقى الذى يوجد فـى الكتب هو التعامل إزاء الشـكل. تعامل مَن يقوم بالكتابة ذاته. فربما يساعد ذلك على التغيُّـر، أو أخذ القـرار أو يساعـد على الوجـود، ولكن بصورة مختلفـة عن «شىء هكذا». وهذا هو الـذى يبدو لى الآن «مهمًا». ابتسمت هى وقالت مرة أخرى: «تخيل!». ولكن فى صوت هادئ ومُبْهم. شردتْ قليلاً ثم واصلت حديثها فى هدوء قائلة: «ذات يوم تناقشنـا حول استحالة البدء فـى الكتابة، كان هو يكتب خطابات أو ملاحظات، ولكن عندما كان يجب عليه أن يكتب حقًا صفحة كانت تواجهـه صعوبات بالغة. قـال لى:«ذات يوم سنكتـب قصة معًا، جملة تَخُطِّينها أنت، وجملة أكتبها أنا، بحيث تسير القصة من جانب إلى آخر». . . منذ سنوات بعيدة كان علىّ أن أكتب بعض القصص

Twitter: @ketab_n

لجريدة ألمانية. وكان يعلن عن القصة يوم الجمعة لقراءتها يوم الاثنين. لذ كنت مرغمة على الكتابة. كنت أبدأ القصة وعندما أصل إلى منتصفها كنت أرتعد خوفًا، لا أدرى لماذا؟ وكان ذلك يثيرنى جدًا، ولكن كان على أية حال شيئًا فظيعًا».

تنهّدت بعمق قائلة: «الآن وكما قلت لك، عندما أحاول أن أكتب أجد «بوبى» أمامى، وبالطبع فأنا أنظر إلى كل قصة بعيون «بوبى...».

لم أكن قط قريبًا هكذا من الإجابة، وغير عابئ أيضًا بالسؤال. فى البداية كنت أعتقد أنه فى أحد هذه اللقاءات سوف تكون هناك لحظة توضيح؛ وأن الموضوع والأشخاص والحجرة سوف تتناغم كلها بصورة متقنة فى ذات الوقت، وأننى، ولا أحد يعلم، سوف أتحوّل بصورة لا أدركها بسبب ما اعترانى من توتر. الآن لا أعرف ما إذا كان الانبهار هو الذى جعلنى أفكر فى ذلك أو هو الحذر الذى دفعنى لأبتعد عنه. حاولت أن أخبرها بذلك، واستخدمت عبارات أخرى، دون أن أتعرّض أبدًا لأية جزئية تتعلق بالصراحة. ثنت هى رأسها وقالت: «أعلم هذا». ثم ابتسمت بطريقة غير مألوفة قائلة: «إن حياتى معه كانت تمتلئ بأشخاص يريدون أن يرونه»، بدون حضورى. كانوا يقولون لى: «هل يضايقك أن أتحدث معه بمفردنا؟» فكنت أذهب لاتنزه، وعندما

Twitter: @ketab_n

كنت أعود كان الشخص الآخر يغادر المكان، وهو ينظر فى اتجاه مختلف. ولكن ذات مرة كنت حاضرة عندما غيّر هو حياة شخص فى منتصف الطريق. كنا نتناول الغداء بمطعم فى الهواء الطلق مع شاب كان يريد أن يلتقى به ليكتب مقالاً عن كاتب ألمانى. وفى لحظة محددة شرع ذلك الشاب يتحدث عن نفسه. لم يقل شيئًا خاصًا، ولكن أسلوبه فى الكلام كان يجعل ما يقوله غير مفهوم. أنصتنا إليه، وفى النهاية قال له «بوبى»: «لماذا تريد أن تكتب مقالات؟ عليك أن تروى هذه الأشياء وكأنها قد حدثت لك، أو كما حكيتها لنا الآن». وبالفعل عمل الشاب بتلك النصيحة بعد ذلك.

قامت هى بترتيب موضع الفنجان والسكين والمنديل الورقى، ثم حركتها قليلاً، وكأن من الضرورى أن يتطابق ذلك مع صورة غير مرئية رُسمت من قبل فوق المائدة الصغيرة. ثم سألتنى قائلة: «أين تناولت الطعام اليوم؟»

فوصفت لها محلا عامًا عند سفح التل بأضوائه الغامضة، دون فائدة، وكأنها حانة ليلية.

فأجابت هى قائلة: «نعم، أعرفه. ولم أعد أذهب إليه. فأنا الآن أتبع نظام الوجبة الأساسية: كثير من الفاكهة مع الجبن والقهوة والزبادى».

Twitter: @ketab_n

ثم أشـارت فى رقة قائلة: «فى بعضـ الأحيان تجتاحنى رغبة مجنونة فى تناول الموتزاريللا».

خيّم السكـون علينا، وشرد كل منا فى أفـكاره المختلفة إلى أن استـدارت بوجهٍ جُلُه مشرق قائلة: «قلـت بالأمس إنك كنت تشعر بالبرد». وحاولت أن أربط مرة أخرى بين هذه العبارة وبين أحد المواقف، أو بيـن الطريقة الهادئة التى ابتعدتْ بها، الآن، متجهة نحو حجرة أخرى. وأسفت على عدم قدرتى على تجنب ضوضاء شرائط الكاسيت التى كانت تنبعـث من هناك. وعادت هى ومعها كيس داكن اللون. وقالت: «إن معىَ هدية لك من «بوبى».

نظرتُ إلى الكيس ثم نظـرتُ إليها. وشعرتُ بأننى قد التصقت بشـدة بالمقعد. ومع خرفشة ورق السلوفـان انزلق خارج الكيس شىء ناعـم الملمس ثم بسطته، وهى تمسك به مفتوحًا من الخلف، فـكان يبدو وكأنه بلوفر مـن الصوف قصير التيلـة الممشط ولونه رماديًا فاتحًا جـدًا، ورقبته على هيئة حـرف V. وابتسمت قائلة: «من يدرِ، فقد يلائمك».

نهضتُ واقفًا وكنت أشعر وكأن جسدى قد فقد كل عزيمة لديه. ووضعت هى البلوفر على الجاكت الذى كنت أرتديه لقياس الكتفين والكمّيـن. وكانت تهتم بـكل جزئية بنظراتها التـى كانت تتحاشى

Twitter: @ketab_n

رؤية وجهى، وقالت: «إنه قصير وواسع. ولكنك ستقوم بإصلاح ذلك». وتركت البلوفر هكذا. وعندما أوشك على السقوط، أمسكتُ به وأنا أضغطُ بيدىَ على المعدة. وشمَمت رائحة الكافور وأحسست بمتانة الصوف. وقلت لها كإنسان آلىّ: «شكرا».

ومرت لحظات، ومع تناولى للشاى، كنت أنظر من حين لآخر للبلوفر الذى وضعته، فى نهاية الأمر، على أحد المقاعد. كنت أود ألا يكترث أحد منا بذلك. ولكن فى الفترات التى كان يهدأ فيها الحوار، كنت أسبح ببصرى تجاه آلة البيانو أو النافذة، ثم ينتهى الأمر هناك بصورة لا إرادية.

قالت هى: «فى كل مساء، وما إن أعد كل شىء لأجلس أمام التليفزيون، يتصل بى شخص. ففى هذا الوقت يقل سعر المكالمة، والجميع يتصلون بى، عندما أوشك على تشغيل التليفزيون. وآخر مرة ذهبت فيها إلى السينما كان لرؤية فيلم «الحياة الحلوة»، ولكنى أشاهد الأفلام دائمًا بالتليفزيون. وقد تغيّرت أشياء كثيرة، فلم تعد لدىّ حتى القطط التى يتحدث عنها «مونتالى» فى قصائده...».

نظرتْ إلىّ نظرة خاطفة كى ترى ما إذا كنت أعرف «آليوبا الراحلة»؛ فأشرت لها بالمعرفة. ولبرهة تخيلت «جرتى»، وهى، «ليوبا»؛ مرة أخرى كأسماء مجردة. وفكرت فى قدرة هذا التجريد

Twitter: @ketab_n

وفى قوة حرفى «الراء» و«الأوه» وفى كيفية استخدام «مونتالى» للأسماء وللنساء فى أشعاره. وفى الطريقة المضادة التى استخدمها بدقة فى شعره: كدعابة عاطفية فى علاقته مع النساء مع كتابته قصيدة شعر أيضًا «لجرتى» بمناسبة عيد ميلاده، ولـ «ليوبا» حتى لا تخاف من اللصوص. لست أدرى، وكأن السكون لا يسمح بأى تزيف أو حتى بأى احتمال وأعنى بذلك الحياة. ربما يتطلب الأمر شيئًا أكثر تحديدًا، مع تحديده بالاسم. واعتقدت أن السكون يُرْغِم المرء على القيام برحلات طويلة لكى يرى. وقد فكرت فى كل هذا مع ظنى بأنها سوف تكون آخر مرة أفكر فى ذلك.

ابتسمتُ وقلت لها: «القطط من الجميل جدًا إزعاجها».

فسألتنى هى: «إزعاجها! كيف؟».

ضحكتُ مرة أخرى قائلاً: «بأن نلقى بمقعد على الأرضية أو بمائدة صغيرة، وسوف تقترب القطط بحذر ودهشة، وكأن هناك كارثة قد حلت بالأثاث، فهزت رأسها قائلة: «القطط مثل اليهود، صعب أن يكونوا أغبياء، ولكن عندما يصبحون كذلك فالغباء يتملكهم تمامًا. على أية حال لم تعد لدىّ الآن قطط».

كانت يداها وفمها تعبر كل بطريقته كما لو كانوا مهيئين فى وقت واحد لتغيّرات شاملة.

Twitter: @ketab_n

أما أنا، فكان البلوفر لا يفارق خيالى.

قالـت هى: «لـم أعد أذهب كثيـرًا إلى المدينـة. كنت هناك فى الأسبوع الماضى لكى أشترى آلة حاسبة صغيرة، كنت أرغب فى شرائهـا منذ زمن. وما إن عدت إلى المنزل حتى عطبت، وأعتقد أننـى سأستغنى عنهـا. وهناك شىء آخـر لم أعد أبـدًا قادرة على القيـام به، ألا وهـو أن أشترى لنفسى ملابـس. ففى المتجر توجد منهـا العشرات، بيد أننى لا أعرف أين توجد ولا أشاهدها أمامى، وعندما أعثر عليها لا تروقنى. وربما هناك سبب آخر، أيضًا... كان يوماً جميـلاً للغاية، ولم يكن عندى ما يشغلنى، حتى الصداع لـم أكن أشكو منـه، وانتقيت من متجر «ماركـس وسبنس» رداءً طويـلاً به بعض الألوان، وانحنيت لكـى أوقّع على الشيك وانتهى الأمر فى ظلام ثقيل...».

لم أعلق علـى كلامها، ونظرتُ ببصرى إلـى أسفل نحو شىء غير محدد. وواصلتْ هى حديثها قائلة: «أن نرى ليس أمرًامهمًا. فهنـاك أيضًـا العكس: أن نكـون غير مرئيين مـن الآخر، لاسيما عندمـا نكون فـى حالة نفسية معينة ومدركيـن. ألم يحدث لك مثل هذا؟»

Twitter: @ketab_n

ابتسمتُ بطريقة تحمل معنى «لا أعرف» أو «لا أتذكر» أو «أننى أوهم نفسى دائمًا بأننى مرئى». وتقدمت هى إلى الأمام وصمتت قليلاً قبل أن تتحدث. ثم قالت: «بعد انتهاء مراسم الجنازة بميلانو، ذهبت إلى المطار. كنت فى حاجة لتناول عصير برتقال وقرص إسبرين. ولكن نظرًا لحلول الليل، كانت كل المحلات مغلقة، لذا لم أشرب شيئًا ولم آخذ الإسبرين. ولم أشعر بذاتى إلا وأنا بداخل الطائرة، شبه الفارغة، لا أدرى كيف، مع وجود إضاءة للقراءة. كنت أجلس فى منتصف الطائرة وكأننى لست موجودة، وفجأة وفى نفس اللحظة لمحت العلامة المضيئة الخاصة بإنجلترا، وشممت رائحة الطعام، واقترب منى مضيف الطائرة وقال: «إنك لم تأخذى طعامك. وهذا يفسر سبب وجود وجبة زائدة، فأجبت قائلة: «لا يهم، يكفينى قدح من القهوة». فقال: «بالتأكيد» وبعد ذلك نسيت القهوة والطائرة. ولم يأت المضيف مرة أخرى.

ما حدث بعد ذلك كان أشبه بالخيالات؛ صالة الانتظار وموقف سيارات الأجرة، وحقيبتى الصغيرة التى ظهرت فجأة لا أدرى من أين. لم يسألنى أحد عن جواز سفرى أو يفحص حقيبتى. ومن المطار إلى «ويمبلدون» لم أستغرق سوى عشر ثوانٍ. وأمام منزلى قال لى سائق التاكسى: «هل أنت بخير يا سيدتى؟لو شئت، أصعد معك وأعد لك فنجانًا من الشاى». وبداخل المطبخ، فتح

Twitter: @ketab_n

السائـق الـدولاب وغسل إبريـق الشـاى دون أن يتكلم. ووضع فنجانًـا واحدًا علـى المائدة وصـبّ لنفسه الشـاى المغلى وشرع يرتشفـه. وعندما انتهى من تناول الشاى قال لى: «تبدين الآن فى حالة طيبة». ودفعت له أجرة التاكسى وغادر المنزل.

كانت هنـاك دوّامة من الكلمـات، وأنا أطـارد بداخلها صورًا ذات سرعـات تفوق سرعتى، إلى أن يهـدأ الهواء فأخفض أنا من سرعتى مرة أخرى.

وسوف أعتقد أننى قد رأيت كل هذا من قبل، وسأذكره بطريقة مختلفـة. وبعـد قليل، وعندمـا أقـول أيضًا: «حسنًـا.....»، وسألتها: كم أستغرق من الوقت من هنا حتى المطار، سوف أنهض وهى ستنهض، وسوف أمُرُّ من بين المقاعد، وأنا أميل جهة اليسار لكى أنسى هنا ما أريده، فسوف يكون ذلك مختلفًا عما أتخيله وعما سأذكـره. والفكرة هو؛ أن هناك لحظة، بين الاختراع والذاكرة، فيها سوف يحدث كل هذا، رغم أنها لن تكون أبدًا محسوسة.

ابتسمتُ لها وأنا أقف عند باب الخروج ثم تعانقنا.

وعندما أوشكتُ على الرحيل قالت لى: «البلوفر؟»

Twitter: @ketab_n

فقلتُ: «نعم، البلوفر».

عادت ومعها البلوفر، ولكن بـدون الكيس؛ وانحنيتُ أنا لأفتح الحقيقة، قالت هى: «ارتده. فالجو رطب بالخارج».

وفى لحظة توقف غريبة وصامتة، فكرتُ فى احتمالات مختلفة بما فيها بقائى هكـذا منحنيًا وساكنًا فى مكانى، وكأن هناك انفصالا شديـدًا عن الزمن يمكن أن يعفينـى من اعتذارات بسيطة أو صعب تعليلها.

كانت هى فى تلك اللحظة أكثر اهتمامًا، لدرجة أننى كنت أشعر بالانزعاج، وبقيتُ وحقيبتى مفتوحة لأطول فترة ممكنة حتى أبرر وقوفى ساكنًـا. بعد ذلك نهضتُ ببـطء ودون أن أنظر أو أسمع، ارتديتُ البلوفر مع الأمل فى أن يكون بمثابة رداء واقٍ.

قالت هى: «أوه، إنه رائع جدًا تحت هذا الجاكت».

فقلتُ: «نعم».

وتبادلنـا التحية مرة أخرى. وأخـذتُ حقيبتى وخرجت. كان يبدو لى أننى لو لم أكن قد تنفستُ لكان إحساسى بالواقع أقل.

Twitter: @ketab_n

ومع نزولـى للتل، كنت أفكـر بين الفينة والأخـرى فى سُمْك القميصـ، وكنـت أتسـاءل: هـل ستكون هنـاك علاقة بيـن فترة ارتدائـى للبلوفـر وأى إحساسـ آخـر. وسرت بخطـوات جادة ومتعجلـة وكأننى أرتدى زيًا عسكريًا. ومن يعلم، كم من الكلمات تلـزم لكى أشرح للأشخاص الجالسين فى هذه الحدائق، فى هدوء أمام منازلهم، قبل غروب الشمس.

كانت قمـة المحطة الصغيرة تظهر مـن بعيد، ونزلتُ درجات السلـم واشتريتُ من الزنجى تذكرة لهيثـرو. وذهبتُ لأقف تحت مظلـة المحطة الخاوية حتى وصلت لآخـر مقعد، والذى كان يطل علـى الريف ومكتوبًا عليـه «خاص بالسادة». وهنـاك بالداخل، ومع خرير الماء المنساب، بحثتُ عن سبب على الجدران المطلية باللون الأبيض والأحمر، وفـى النهاية علقت الجاكت على جانب أحد الأبـواب. وخلعت البلوفر ووضعته علـى الحقيبة. وارتديتُ الجاكت مرة أخرى، وهذّبت شعرى بإحدى يدىّ حتى يبدو منسقًا، وإن لـم تكن هناك مرآة. وبالخارج كنت أسمع صوتًا متناسقًا أشبه بصرير متواصل.

كنـت أجلسـ ساكنًا أمـام القطـار المصنوع مـن الألومنيوم، وكانـت الشمس خلفى توشك على الغروب فى جانب منها. لم أكن هكذا أبدًا فى البداية، محددًا ومترددًا.

Twitter: @ketab_n

ومع انتظـار فتح أبواب القطار، بحثتُ فى جيبى عن التذكرة. ثـم حملت الحقيبة بيـد، وبالأخرى كنت أمسك البلوفـر برقة أشبه بتلك التى تُمسك بها يد طفل.

Twitter: @ketab_n

المؤلف فى سطور:

دانيلى ديل جوديتشيه

ولد فى روما عام 1949 وهو كاتب وأستاذ جامعى.

بدأ «**دانيلى ديل جوديتشيه**»: نشاطه الأدبى بقصته «**إستاد ويمبلدون**» عام 1983 وقامت بنشرها دار «إيناودي». فى عام 1988 قام بنشر قصته «فى متحف ريمس». وفى عام 1994 قام بنشر قصته «نزع الظل من الأرض» التى حصل من أجلها على جائزة «باجوتا». وفى عام 1997 قام بنشر مجموعة من القصص تحت عنوان «هوس». وفى عام 2001 قام بالاشتراك مع «ماركو باولينى» بكتابة «أنشودة من أجل أوستيكا».

حصل «**دانيلى ديل جوديتشيه**» على مجموعة من الجوائز منها جائزة «فيارجو» فى عام 1983 وجائزة «برجامو» فى عام 1986 وجائزة «باجوتا» فى عام 1995، وفى عام 2000 حصل على جائزة «فلترنيللى». وقد تمت ترجمة أعماله الأدبية إلى عدة لغات.

Twitter: @ketab_n

المترجم فى سطور:

سيد الشيخ

ولـد فى السويس عـام 1962 . التحق بكليـة الألسن فى جامعة عيـن شمس عام 1980 وحصـل على ليسانس اللغـة الإيطالية فى عام 1984 بتقديـر «جيد جدًّا» مع مرتبة الشرف . كما حصل على ماجستيـر الألسـن فـى الأدب الإيطالى عـام 1992 وكان عنوان الرسالـة «دراسة مقارنة بين روايـة «الأرض» للكاتب المصرى «عبد الرحمن الشرقاوى» وروايـة «فونتامارا» للكاتب الإيطالى «أنيستو سيلونى»، وحصل على تقدير ممتاز .

كما حصل على درجة دكتوراه الألسن فى الأدب الإيطالى عام 2002 ، وكان عنوان الرسالة «مصر فى عيون الأدب الإيطالى» وقد حصل على تقدير مرتبة الشرف الأولى .

يعمل حاليًا مدرسًا لـلأدب والترجمة الإيطالية بكلية الألسن فى جامعة عين شمس .

Twitter: @ketab_n

التصحيح اللغوى: وجيه فاروق

الإشراف الفنى: حسن كامل

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذه الرواية تحكى لنا عن شاب يقوم بتحقيق حول شخصية محددة، بعد وفاتها بخمسة عشر عاما، ويذهب ليبحث عن أصدقائها وصديقاتها فى فترة الشباب الذين أصبحوا الآن فى سن متقدمة. من كانت هذه الشخصية التى تعد شخصية متأصلة فى الحياة الأدبية الإيطالية، وصديقة لشعراء وكتاب لا يهم؛ لأن الحديث عنها فى القصة يسير بلا تحديد وعن بعد، ولاسيما ليقال إنها لا تهم الشاب رغم تتبعه آثار هذه الأسطورة. ماذا يريد أن يقول لنا هذا الكتاب غير المألوف؟ هل يخبرنا باستهلال أول قصة لكاتب شاب؟ أم هى محاولة اقتراب جديدة من التصوير والرواية من خلال نظام جديد للجمل المعطوفة ؟

إيطالو كالفينو

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح